

الأدب العالمي للناشئين

روبينسون كروزو



دانيال ديفو

روبنسون کروزو

روبسون كروزو

تألف
دانيل ديفو

ترجمة
مروة ماهر الحق

مراجعة
إيمان عبد الغني نجم



الطبعة الأولى ٢٠١٣ م

رقم إيداع ٢٠١٣/١٤٢٣٩

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦/٨/٢٠١٢

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتاح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + فاكس: ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

ديفو، دانيال.

روبنسون كروزو/تأليف: دانيال ديفو.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٧١٩ ٣٣٧ ٥

١- القصص الإنجليزية

أ- العنوان

رسم الغلاف: إيمان إبراهيم، تصميم الغلاف: إيهاب سالم.

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

Arabic Language Translation Copyright © 2013 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

Robinson Crusoe

All rights reserved.

المحتويات

٧	١- حَيَاةُ بَحَارٍ
٩	٢- أُولَى رِحْلَاتِي
١١	٣- عَاصِفَةٌ عَاتِيَةٌ
١٥	٤- رِحْلَةٌ إِلَى أَفْرِيقِيَا
١٧	٥- قَرَاصِنَةٌ!
١٩	٦- فُرْصَةٌ الْهَرَبِ
٢٣	٧- الْأَحْرَارُ
٢٥	٨- السَّفِينَةُ الْإِنْجِلِيزِيَّةُ
٢٩	٩- حَيَاةُ الزَّرَاعَةِ
٣١	١٠- أَفْرِيقِيَا مِنْ جَدِيدٍ
٣٣	١١- تَحَطُّمُ السَّفِينَةِ!
٣٧	١٢- جَزِيرَةُ الْيَأْسِ
٤١	١٣- مَلَانٌ مُوقَّتٌ
٤٥	١٤- الشَّهْرُ الْأَوَّلُ
٤٩	١٥- الْحَيَاةُ عَلَى جَزِيرَةِ مَهْجُورَةٍ
٥٣	١٦- جَزِيرَةُ الْإِكْتِشَافِ
٥٥	١٧- رُوبِنْسُونُ الْمَزَارِعُ
٥٩	١٨- وَتَسْتَمِرُّ الْحَيَاةُ
٦١	١٩- قَارِبٌ

٦٥

٢٠- حَادِثَةٌ أُخْرَى

٦٩

٢١- الْعَقْدُ الْأَوَّلُ

٧١

٢٢- أَثَرُ قَدَمٍ

٧٣

٢٣- لَا دُحَانَ وَلَا نَارَ

٧٥

٢٤- تَحَطُّمُ سَفِينَةٍ أُخْرَى

٧٩

٢٥- رُوبِنْسُونُ يُقَابِلُ «جَمْعَةٌ»

٨١

٢٦- الْحَيَاةُ مَعَ صَدِيقٍ

٨٥

٢٧- هَلْ يُمْكِنُنَا مُغَادَرَةُ الْجَزِيرَةِ؟

٨٧

٢٨- التَّمَرُّدُ وَالْحُرِّيَّةُ

٨٩

٢٩- الْأَخْذُ بِالذَّفَقَةِ

٩٣

٣٠- الْعُودَةُ إِلَى الْوَطَنِ

الفصل الأول

حَيَاةُ بَحَّارٍ

اسْمِي رُوَيْسُونُ كُرُوزُو. وُلِدْتُ عَامَ ١٦٣٢ بِبَلَدَةِ يُوْرُكْ، وَكُنْتُ الْإِبْنَ الْأَصْغَرَ مِنْ بَيْنِ أَبْنَاءِ ثَلَاثَةِ، وَكَانَ أَخِي الْأَكْبَرُ جُنْدِيًّا لِكِنَّةِ لَقِي حَتْفَهُ فِي مَعْرَكَةٍ ضِدَّ إِسْبَانِيَا، فِيمَا اخْتَفَى أَخِي الثَّانِي مِنْ حَيَاتِنَا حِينَمَا رَحَلَ يَوْمًا مَا وَلَمْ يَعُدْ قَطُّ. وَبِذَلِكَ فَقَدَ أَبَوَايَ اثْنَيْنِ مِنْ أَبْنَائِهِمَا وَلَمْ يَزَعْجَا فِي أَنْ يَفْقِدَا الثَّلَاثَ؛ لِذَا أَرَادَ أَبِي أَنْ أَظَلَّ فِي الْوَطَنِ وَأَنْ أُصْبِحَ مُحَامِيًّا، لَكِنِّي كُنْتُ أَعْشَقُ الْمُغَامِرَاتِ الرَّائِعَةَ وَالْبِلَادَ الْبَعِيدَةَ؛ فَقَدَ أَرَدْتُ أَنْ أَكُونَ بَحَّارًا!!

فِي صَبَاحِ أَحَدِ الْأَيَّامِ، دَعَانِي أَبِي إِلَى غُرْفَةِ مَكْتَبِهِ، وَكَانَ رَجُلًا وَقُورًا عَابِسَ الْعَيْنَيْنِ وَحَادًا الذِّكَاةِ. تَحَدَّثَ إِلَيَّ لِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ عَنْ أَحْلَامِي، وَكَانَ أَبِي قَدْ عَمِلَ بِجِدِّ لِكُنِّي يُوفِّرُ لِأَسْرَتِهِ حَيَاةً أَمَنَةً كَرِيمَةً. فَكَيْفَ لِي أَنْ أَتْرِكَ كُلَّ شَيْءٍ وَرَاءَ ظَهْرِي لِأَعِيشَ حَيَاةً فِي أَعَالِي الْبَحَارِ؟ لَمْ أَنْبَسْ بِنَيْتِ شَفَةِ دِفَاعًا عَنْ حُلْمِي؛ إِذْ كَانَ الْإِبْحَارُ عَمَلًا شَاقًا وَمُخِيفًا، وَفَقَدَ الْعَدِيدُ مِنَ الرِّجَالِ حَيَاتَهُمْ فِيهِ، وَفِيهِ أَيْضًا ضَلَّتْ قَوَارِبُ عَدِيدَةِ الطَّرِيقِ، وَتَرَكَ عَدِيدُونَ وَطَنَهُمْ وَلَمْ يَعُودُوا قَطُّ تَارَةً أُخْرَى، وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ الْمُثْبِرَةَ تَشْحَذُ خِيَالِي.

قُلْتُ لِأَبِي: «أَعْرِفُ أَنَّ الْأَمْرَ مُحْفُوفٌ بِالْمَخَاطِرِ يَا أَبِي، لَكِنِّي أَشْعُرُ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ قَدْرِي، أَنَا أَسْفُ.»

بَدَأَ أَبِي فِي الْبُكَاءِ، وَشَعَرْتُ بِأَسَى بَالِغٍ لِأَنِّي أَحْرَزْتُهُ؛ لِذَلِكَ قَرَّرْتُ أَنْ أَظَلَّ فِي دِيَارِي، فِي الْوَقْتِ الْحَالِي.

بَدَلْتُ فُصَارَى جُهْدِي كَيْ أَتَجَنَّبَ ذِكْرَ الْحِكَايَاتِ النَّيِّ أَقْرَأَهَا أَوْ الرِّحَلَاتِ الرَّائِعَةَ الَّتِي أَسْمَعُ الرِّجَالَ يَتَحَدَّثُونَ عَنْهَا فِي الطَّرِيقَاتِ. فَعَانَيْتُ فِي صَمْتٍ وَحَاوَلْتُ أَنْ أَكُونَ ابْنًا

يَفْخَرُ بِهِ أَبِي، لَكِنَّ الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ سَهْلًا. فَقَدْ كَانَ قَلْبِي يَتَوَقَّ تَوَقُّاً مُوجِعًا لِرَائِحَةِ الْبَحْرِ
مَنْ عَلَى سَطْحِ سَفِينَةٍ كَبِيرَةٍ. وَتَأَقَّتْ قَدَمَايَ لِلسَّيْرِ عَلَى شَطْآنِ الْبِلَادِ الْبَعِيدَةِ، وَلَمْ أَرْغَبْ فِي
التَّقَاعُسِ وَإِهْدَارِ شَبَابِي سُدًى؛ فَكُنْتُ أَعْشَقُ الْمُغَامِرَةَ، وَلَمْ يَكُنْ أَيُّ شَيْءٍ غَيْرَهَا لِيُشْعِرَنِي
بِالسَّعَادَةِ.

مَرَّتْ بِضَعْفِ أَسَابِيعِ قَصِيرَةٍ، صِرْتُ فِيهَا أَكْثَرَ إِصْرَارًا عَلَى أَنْ أَصْبِحَ بَحَّارًا، وَأَرَدْتُ
أَنْ أَرْحَلَ فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ وَأَرْكَبَ أَوَّلَ سَفِينَةٍ تُبْجَرُ فَوْقَ صَفْحَةِ مِيَاهِ الْبَحْرِ الْبَعِيدَةِ، لَكِنِّي
كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ سَيُزْعَجُ وَالِدِي، وَبَدَلًا مِنَ الْإِقْدَامِ عَلَى هَذِهِ الْخُطْوَةِ، حَاوَلْتُ التَّحَدُّثَ مَعَ
أُمِّي.

قُلْتُ لَهَا: «لَقَدْ حَسَمْتُ أَمْرِي يَا أُمِّي، فَمَا تَمَنَيْتُ شَيْئًا فِي حَيَاتِي سِوَى أَنْ أَصْبِحَ
بَحَّارًا، وَأَرْجُو أَنْ تَسْمَحَا لِي أَنْتِ وَأَبِي بِالْإِبْحَارِ.»

وَاسْتَطْرَدْتُ حَدِيثِي مَعَهَا قَائِلًا: «إِنِّي فِي الثَّامِنَةِ عَشْرَةَ الْآنَ مِنْ عُمْرِي، فَإِذَا أَجَبْتُمَانِي
عَلَى أَنْ أَصْبِحَ مُحَامِيًا أَوْ أَجَبْتُمَانِي عَلَى تَعَلُّمِ مِهْنَةٍ أُخْرَى، فَسَأَلُودُ بِالْفِرَارِ. لَكِنْ إِذَا
تَرَكْتُمَانِي أَذْهَبُ فِي رِحْلَةٍ وَاحِدَةٍ، فَسَأَعُودُ وَأَفْعَلُ كُلَّ مَا يَطْلُبُهُ أَبِي.»
اسْتَشَاطَتْ أُمِّي غَضَبًا وَرَفَضَتْ أَنْ تَطْلُبَ مِنْ أَبِي أَيَّ شَيْءٍ؛ وَرَفَضَ كِلَاهُمَا الْأَمْرَ
رَفُضًا بَاتًا، وَكَانَتْ تَلِكِ نِهَآيَةَ النِّقَاشِ.

حَاوَلَ أَبُوَايَ بِشَتَّى الطَّرِيقِ إِثْنَانِي عَنْ فَرَارِ الرَّحِيلِ؛ فَوَعَدَانِي أَنْ بِإِمْكَانِي الْإِلْتِحَاقَ
بِأَيِّ جَامِعَةٍ أُرِيدُهَا، وَأَخْبَرَانِي أَنَّ بِمَقْدُورِي التَّفَكُّيرِ فِي أَيِّ مِهْنَةٍ تَحْلُو لِي. لَكِنِّي رَفَضْتُ
الْعُرُوضَ كُلَّهَا؛ إِذْ كَانَ الْإِبْحَارُ هُوَ حُلْمِي الْوَحِيدِ، وَلَمْ أَكُنْ مُسْتَعِدًّا لِلْقَبُولِ بِأَيِّ بَدِيلٍ آخَرَ.

الفصل الثاني

أولى رحلاتي

بَعْدَ عَامٍ تَقْرِيْبًا، أُرْسَلَنِي وَالِدِي إِلَى بَلَدَةِ هَالٍ لِأَدَاءِ بَعْضِ الْمَهَامِّ لَهُ. وَمَا إِنْ وَصَلْتُ إِلَى هُنَاكَ حَتَّى التَّقِيْتُ صُدْفَةً بِجُونٍ - وَهُوَ صَدِيقُ دِرَاسَةِ قَدِيمٍ - وَكَانَ وَالِدُهُ قُبْطَانِ سَفِينَةٍ مُبْجَرَةٍ إِلَى لَنْدَنَ.

قُلْتُ لَهُ: «إِنَّكَ لَمَحْظُوطٌ! فَكُلُّ مَا أَرَدْتُهُ فِي حَيَاتِي هُوَ أَنْ أَصْبِحَ بَحَّارًا، لَكِنَّ وَالِدِي لَنْ يَسْمَحًا لِي بِالْإِبْحَارِ.»

- «سِنَّكَ كَبِيرٌ بِمَا يَكْفِي كَيْ تَتَّخِذَ قَرَارَاتِكَ بِنَفْسِكَ يَا رُوْبِنْسُونُ، فَلِمَ تَهْتَمُّ بِرَأْيِهِمْ؟ سَأَقْتَرِحُ عَلَيْكَ فِي الْحَالِ مَكَانًا عَلَى سَفِينَةِ وَالِدِي، فَلِمَ لَا تَأْتِي مَعَنَا وَحَسْبُ؟»

جَالَ فِي خَاطِرِي حِينَهَا: «أَجَلٌ! هَا هِيَ فُرْصَتِي.»

- «حَسَنًا، أَنَا مُوَاْفِقٌ يَا جُونُ! شُكْرًا لَكَ، سَيُسْعِدُنِي الذَّهَابُ مَعَكَ!»

سَيِّئًا لِي وَالِدِي، لَكِنَّ لَا يُمَكِّنُ أَنْ أَقْضِي حَيَاتِي مُحَاوَلًا إِسْعَادَهُمَا. أَخِيرًا سَأُصْبِحُ بَحَّارًا!

غَادَرْنَا فِي سَاعَةِ مُبَكَّرَةٍ مِنَ الصَّبَاحِ، وَلَمْ تَكِدِ الشَّمْسُ تُشْرِقُ حَتَّى بَدَأْنَا رِحْلَتَنَا. وَتَأَرَّجَحَتِ السَّفِينَةُ فَوْقَ الْأَمْوَاجِ إِلَى أَعْلَى وَإِلَى أَسْفَلَ حَتَّى أَصْبَتُ بِدَوَارِ الْبَحْرِ. وَإِلَى جَانِبِ مَعْدَتِي الْمُضْطَرِبَةِ، تَمَلَّكَنِي الْخَوْفُ لِعُلُوِّ الْأَمْوَاجِ وَتَكْسُرِهَا عَلَى جَانِبِي السَّفِينَةِ، وَفِيضِهَا أَحْيَانًا عَلَى السَّطْحِ.

اسْتَلْقَيْتُ عَلَى الرُّجُوحَةِ الشَّبَكِيَّةِ فِي حُجْرَتِي الصَّغِيرَةِ وَشَعَرْتُ بِالتَّعَاسَةِ، فَبَكَيْتُ
وَبَكَيْتُ، وَشَعَرْتُ بِالدُّنْبِ لِرحِيلِي عَنْ أُمِّي وَأَبِي عَلَى النَّحْوِ الَّذِي فَعَلْتُ، فَقَدْ كَانَا أَبُوَيْنِ
صَالِحَيْنِ وَعَطُوفَيْنِ وَأَرَادَا لِي الخَيْرَ، كُلَّ الخَيْرِ، لَكِنِّي حَيَبْتُ أَمَالَهُمَا وَكَانَ هَذَا هُوَ عِقَابِي.
ازدادت العاصفة سوءاً، وازدادت الأمواج ارتفاعاً، وتوقعت أن تبتلعنا كلُّ واحدةٍ
من هذه الأمواجِ بالكامل. وفي كلِّ مرَّةٍ تغوصُ فيها السفينةُ أسفلَ موجةٍ أخرى هائلةٍ،
كنتُ أظنُّ أنها لن ترتفع أبداً مرَّةً أخرى. وقلتُ لنفسي في تلك الليلة: «إذا نجوتُ بأيِّ
حالٍ، أقسمُ أنني سأذهبُ إلى بلدتي لأُمِّي وأبي، وأن أكون إنساناً صالحاً، وسوف أكون
ابناً باراً بهما!»

بحلول صباحِ اليومِ التالي، كانَ البحرُ قد هدأ، وبدأ أملَسَ كالزُّجاجِ، ولم يعدُ جسدي
يشعرُ بدوارِ البحرِ، واستقبلتني الشمسُ بيومٍ مشرقٍ وممتعٍ. كم هو الأمرُ مختلفٌ!
صعدتُ إلى ظهرِ السفينةِ لأولِ مرَّةٍ منذُ مغادرتنا هالاً، ورأيتُ جونَ يتأملُ الأفقَ، ويقولُ:
«تبدو أفضلَ حالاً! لا أصدقُ أنكُ كنتُ مدعوراً لهذا الحدِّ من هبةِ رياحٍ بسيطةٍ!»

قلتُ مستنكراً: «هبةُ رياحٍ بسيطةٍ! يا لها من عاصفةٍ مريعةٍ!»
فضحك جونُ وقال: «إنك لم تر شيئاً بعد. فقط انتظرِ حتى تكونَ في عرضِ البحرِ،
وحينها سترى كيفُ تكونُ العاصفةُ!»
ضحكتُ أنا الآخرُ وقلتُ: «حسناً، فقد تعاملتُ معها بأيِّ حالٍ، خاطيرةٌ كانت أم غيرَ
خاطيرةٍ، فهذه أولُ عاصفةٍ لي في البحرِ.»

قال لي بمرحٍ: «تعال يا روبنسون، هيا بنا لنشربَ بعضَ البنش!»
يا للمتعَةِ التي حظيتُ بها هذه الليلة! ذهبَت عني جميعُ مخاوفِي في كأسِ من البنشِ
ووقتِ رائعٍ صاخِبٍ. وسرعانَ ما راحَ وعدُ الليلةِ السابقةِ بالعودةِ لبلدتي طيَّ النسيانِ،
فما عدتُ حائِثاً من أن يبتلعني البحرُ كليَّه، ولم أرغبُ في العودةِ لدياري؛ لقد خلقتُ
لحياةَ البحارِ.

الفصل الثالث

عَاصِفَةٌ عَاتِيَةٌ

فِي يَوْمِنَا السَّادِسِ فِي الْبَحْرِ، اضْطُرْنَا أَنْ نَرْسُوَ فِي يَارْمَاوْتِ بِسَبَبِ الرِّيحِ الشَّدِيدَةِ الَّتِي تَهُبُّ فِي الْإِتِّجَاهِ الْمَعَاكِسِ. وَكَانَ هُنَاكَ سُفُنٌ عَدِيدَةٌ مُنْتَظِرَةٌ بِالْمَثَلِ. وَبَعْدَ قُرَابَةِ أُسْبُوعٍ، هَبَّتِ الرِّيحُ أُخِيرًا فِي الْإِتِّجَاهِ الْمُوَاتِي سَلْنَا، إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ شَدِيدَةً لِلْغَايَةِ، وَاعْتَقَدَ وَالِدُ جُونِ — الْقُبْطَانُ — أَنَّهُ لَا بَأْسَ فِي أَنْ نُبْحَرَ، لَكِنَّ الرِّجَالَ لَمْ يَقْتِنِعُوا بِرَأْيِهِ.

شَرَعَ الْعَمَالُ جَمِيعُهُمْ فِي إِنْزَالِ الْأَشْرَعَةِ الْعَالِيَةِ مِنَ الصَّوَارِي الْعُلْيَا، وَبَدَلَ أَفْرَادَ الطَّاقِمِ قُضَارَى جُهْدِهِمْ لِيَتَأَكَّدُوا مِنْ تَأْمِينِ الْحُمُولَةِ وَالْمَعْدَاتِ وَرَصَّهَا عَلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ، فَلَمْ نَرُدْ أَنْ يَطِيرَ أَيُّ شَيْءٍ بِفَعْلِ الرِّيحِ. وَتَأَكَّدَ أَفْرَادُ الطَّاقِمِ أَنَّ السَّفِينَةَ سَتَسِيرُ بِسَلَاسَةٍ قَدْرَ الْمُسْتَطَاعِ فَوْقَ الْأَمْوَاجِ.

بَدَأْنَا رِحْلَتَنَا بَاكِراً ذَلِكَ الصَّبَاحِ، وَبِحُلُولِ الظَّهْرِ انْقَلَبَ الْبَحْرُ ضِدَّنَا. كَانَتْ عَاصِفَةٌ عَظِيمَةً وَمُخِيفَةً. رَأَيْتِ الرُّعْبَ وَالذُّهُولَ فِي أَعْيُنِ أَفْرَادِ الطَّاقِمِ، وَظَلَّ وَالِدُ جُونِ يَرْوَحُ وَيَجِيءُ مِنْ وَآلِي حُجْرَتِهِ، وَسَمِعْتُهُ يُعْمِغُ قَائِلاً: «سَنَضِيعُ كُلَّنَا».

لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَصِفَ مَدَى فَرْعِي؛ تَمَايَلَتِ السَّفِينَةُ تَمَائِلاً شَدِيدًا وَهِيَ تَجْرِي بِنَا فِي مَوْجِ كَالْجِبَالِ. وَكُلُّ بَضْعٍ دَقَائِقُ تَرْتَطِمُ مَوْجَةً جَدِيدَةً بِالسَّفِينَةِ، وَلَطَمَتِ الْأَمْوَاجُ الْعَنِيفَةُ سُفُنًا أُخْرَى عَدِيدَةً مِنْ حَوْلِنَا.

كُنْتُ أَرْقُبُ الْبَحَّارَةَ الْأَخْرِينَ وَهُمْ يَعْمَلُونَ بِحِدِّ عَلَى إِنْزَالِ صَوَارِيهِمْ كَيْ لَا تَجْرِفَهَا الرِّيحُ، فَإِذَا أُنْزِلَتِ الصَّوَارِي سَاعَدَ ذَلِكَ فِي مَنَعِ الْأَمْوَاجِ مِنْ دَفْعِ السَّفِينَةِ إِلَى تَحْتِ الْمَاءِ.

وَفِي الْبِدَايَةِ، تَرَدَّدَ الْقُبْطَانُ فِي فِعْلٍ ذَلِكَ لِأَنَّ حَمُولَتَنَا مِنَ الْبِضَائِعِ كَانَتْ ثَقِيلَةً، وَلَمْ يَرِدْ أَنْ يَنْعَمِ تَوَازُنُنَا. بَعْدَ ذَلِكَ، اِزْدَادَ النَّحْرُ اضْطِرَابًا وَازْدَادَتِ الْعَاصِفَةُ عُنُورًا.
وَسُرْعَانَ مَا اقْتَنَعَ الْقُبْطَانُ، فَصَاحَ: «نَكْسُوا الْأَشْرَعَةَ! أَنْزِلُوهَا مَعَ الصَّوَارِي! بِسُرْعَةٍ يَا شَبَابَ، وَإِلَّا سَنَضِيعُ كُلُّنَا!» وَدَعَوْنَا، لَعَلَّ مَا فَعَلْنَاهُ يَكُونُ جَدِيرًا بِإِنْقَاذِ أَرْوَاحِنَا.
وَكَانَتْ سَفْنٌ أُخْرَى عَدِيدَةٌ لَا زَالَتْ تُوَاجِهُ الصَّعَابَ فِي الْعَاصِفَةِ، بَيْنَمَا غَرِقَتْ بِالْفِعْلِ إِحْدَى السَّفْنِ الَّتِي كَانَتْ تَتَقَدَّمُنَا حِينَهَا.

كَانَ الْأَسْوَأُ فِي انْتِظَارِنَا. تَجَمَّعَ الرَّجَالُ بِالْقُرْبِ مِنِّي فِي الْحُجْرَةِ قَائِلِينَ إِنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا عَاصِفَةً مِثْلَ هَذِهِ قَطُّ. فَدَعَاؤُا اللَّهِ أَنْ يُجِيبَهُمْ، وَرَجَوْهُ أَنْ يُنْقِذَهُمْ. لَكِنَّ الْعَاصِفَةَ لَمْ تَرْفُقْ بِهِمْ، حَتَّى الْقُبْطَانُ ظَنَّ أَنَّ الْمَكَانَ الْوَحِيدَ الَّذِي قَدْ نَرَسُو فِيهِ هُوَ قَاعُ الْبَحْرِ.
وَفِي اللَّحْظَةِ الَّتِي اعْتَقَدْنَا فِيهَا أَنَّ الْأُمُورَ وَصَلَتْ لِأَسْوَأِ حَدٍّ، جَاءَ رَجُلٌ مُهْرُولًا مِنْ أَسْفَلٍ وَصَاحَ أَنْ سَفِينَتَنَا قَدْ أَصَابَهَا حَرَقٌ، وَأَنَّ اِرْتِفَاعَ الْمِيَاهِ فِي مَحْزَنِ السَّفِينَةِ بَلَغَ أَرْبَعَ أَقْدَامٍ! اسْتَدْعَى الْعَمَالَ جَمِيعَهُمْ إِلَى أَسْفَلِ سَطْحِ السَّفِينَةِ لِتَفْرِيجِ الْمَاءِ، فَذَلَّتْ إِلَى أَسْفَلٍ وَبِذَلَّتْ قِصَارَى جُهْدِي.

بَدَتْ الْمِيَاهُ كَأَنَّهَا هِيَ الطَّرْفُ الْفَائِزُ فِي الْمَعْرَكَةِ، فَمَعَ أَنَّ الْعَاصِفَةَ هَدَّاتٌ قَلِيلًا، إِلَّا أَنَّ الْمَحْزَنَ ظَلَّ مُمْتَلِئًا بِالْمِيَاهِ. وَأَدْرَكَ الْقُبْطَانُ أَنَّ لَنْ نَبْلُغَ الْمِينَاءَ التَّالِيَّ أَبَدًا، فَأَمَرَ أَفْرَادَ الطَّاقِمِ بِالْبِدْءِ فِي إِطْلَاقِ مَدَافِعِنَا لِطَلَبِ النَّجْدَةِ.

سَمِعْتُ أَحَدَ الْبَحَّارَةِ يَصِيحُ: «انْتِظَرُوا! هَا قَدْ أَتَى قَارِبٌ إِنْقَاذًا»، وَلَكِنَّ الْأَمْوَاجَ جَعَلَتْ وُضُوعَ الْقَارِبِ إِلَيْنَا شَبَهَ مُسْتَحِيلٍ. وَكَانَتْ أَمَامَنَا فُرْصَةٌ وَاحِدَةٌ: أَنْ نَقْذِفَ إِلَيْهِمْ بِحَبْلِ، حَتَّى نَظَلَّ عَلَى قَدْرِ مِنَ الثَّبَاتِ يُتَبَّحُ الْإِنْتِقَالَ إِلَيْهِمْ. فَرَاقِبْنَا جَمِيعًا نَائِبَ الْقُبْطَانِ وَهُوَ يُلْقِي الْحَبْلَ بِحَرِصٍ بِاتِّجَاهِ الْبَحْرِ الْمُمْتَدِّ، وَيَا لَهُ مِنْ حَظٍّ! فَقَدْ أَمْسَكُوا بِالْحَبْلِ! وَتَدَافَعْنَا نَتَرَا حَمًّا بِالْمَنَاكِبِ لِنَعْلُقَ إِلَى سَطْحِ الْقَارِبِ.

مَعَ كُلِّ مَرَّةٍ يَصِلُ فِيهَا قَارِبُ الْإِنْقَاذِ الصَّغِيرِ إِلَى ذِرْوَةِ مَوْجَةٍ، كُنْتُ أَحْتَسِي عَلَى حَيَاتِي؛ إِذْ كَانَتْ الْأَمْوَاجُ عَالِيَةً جِدًّا! وَكُنَّا نَحْنُ صِغَارَ الْحَجْمِ جِدًّا! وَاسْتَمَرَ الرَّجَالُ الشُّجْعَانَ فِي التَّجْدِيفِ، فَقَدْ حَمَلُوا أَرْوَاحَهُمْ عَلَى أَكْفِهِمْ لِمُسَاعَدَتِنَا، وَكَانُوا عَازِمِينَ عَلَى إِنْقَاذِنَا.

وَبَعْدَ خَمْسَ عَشْرَةَ دَقِيقَةً فَقَطُّ مِنْ إِنْقَاذِنَا، شَاهَدْنَا سَفِينَتَنَا — وَالرُّعْبُ مَلَأَ قُلُوبَنَا — وَهِيَ تَنْقَلِبُ وَتَعُوضُ فِي الْعُمُقِ. وَبَعْدَمَا ظَنَنْتُ أَنِّي سَأَنْتَظِرُ دَهْرًا كَامِلًا حَتَّى أَرَى

الشَّاطِئِ، تَمَكَّنْتُ أَحْيَرًا مِنْ رُؤْيَيْتِهِ، حَيْثُ يَعْدُو رِجَالٌ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ مُنْتَظِرِينَ وَصُولَنَا، وَمُحَاوِلِينَ الْمُسَاعَدَةَ إِنْ أَمَكَّنَهُمْ ذَلِكَ.

رَسُونًا بِأَمَانٍ! وَأَنْطَلَقْتُ صِيحَاتِ الْمَرْحِ وَالتَّهْلِيلِ لِحُطَّةِ اضْطِدَامِ الْقَارِبِ بِالشَّاطِئِ الرَّمْلِيِّ. وَأَلْقَى رِجَالٌ حَوْلَنَا مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ بِالبَطَّاطِينِ عَلَيْنَا كَيْ لَا نَشْعُرَ بِالبُرْدِ. وَشَكَرَ قُبْطَانُنَا الرَّجَالَ الشُّجْعَانَ الَّذِينَ أَنْقَدُونَا شُكْرًا حَارًّا.

سَارَ طَاقِمُنَا كُلُّهُ بِبَطْءٍ عَائِدًا إِلَى يَارْمَاوثَ، وَرُوحَنَا الْمَعْنَوِيَّةَ فِي الْحَضِيضِ لِأَنَّنا فَقَدْنَا سَفِينَتَنَا. وَلَكِنَّ طَيْبَةَ النَّاسِ فِي يَارْمَاوثَ كَانَ لَهَا دَوْرٌ كَبِيرٌ فِي التَّخْفِيفِ عَنَّا، فَقَدُ دَبَّرَ الْقَاضِي الْمَحَلِّيُّ سَرِيرًا دَافِعًا لِكُلِّ فَرْدٍ مَنَّا لِقَضَاءِ اللَّيْلِ، وَكَانَ الْعَدِيدُ مِنْ أَصْحَابِ الْمَتَاجِرِ طَيِّبِينَ، حَتَّى إِنَّهُمْ سَاعَدُونَا فِي الْعُودَةِ إِلَى لُنْدُنَ أَوْ هَال.

رَاوَعَنِي شَيْءٌ مِنَ الْحَنِينِ لِلْعُودَةِ إِلَى هَال، وَمِنْ هُنَاكَ كَانَ يُمَكِّنُنِي السَّفَرُ إِلَى يورِكَ لِأَرَى وَالِدَيَّ، لَكِنَّ عَاطِفَتِي الْكُبْرَى كَانَتْ لَا تَزَالُ مُنْجَرِفَةً نَحْوَ حَوْضِ مُغَامَرَةٍ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَحْسِمَ أَمْرِي: هَلْ يَنْبَغِي لِي الْبَقَاءُ فِي يَارْمَاوثَ وَالْعُثُورُ عَلَى سَفِينَةٍ جَدِيدَةٍ؟ أَمْ عَلَيَّ الْعُودَةُ إِلَى الْوَطَنِ؟

فِي يَوْمِي التَّالِثِ فِي يَارْمَاوثَ، التَّقَيْتُ صَدِيقِي جُونِ صُدْفَةً وَهُوَ يَسِيرُ مَعَ وَالِدِهِ، وَبَدَأَ عَلَيَّ كِلَيْهِمَا الصِّيْقُ وَالْإِنْزِعَاجُ.

قَالَ جُونُ: «أَبِي، هَذَا هُوَ رُوبِنْسُونُ. أَتَذْكُرُ أَنَّني أَخْبَرْتُكَ كَيْفَ صَاحَبْنَا لِيَعِيشَ حَيَاةَ الْبَحَّارِ. إِنَّهُ يَرَعِبُ فِي أَنْ يُمْضِي حَيَاتَهُ فِي الْبَحْرِ.»
نَظَرَ إِلَيَّ الْقُبْطَانُ بِتَأَمُّلٍ وَقَالَ: «رُوبِنْسُونُ، اِعْتَبِرْ هَذِهِ إِشَارَةً، وَعُدْ إِلَى بَلَدِكَ، فَحَيَاةَ الْبَحْرِ لَيْسَتْ لَكَ.»

سَأَلْتُهُ: «لَكِنْ يَا سَيِّدِي، هَلْ غَيَّرْتَ فِكْرَكَ هَذِهِ الْعَاصِفَةُ بِالْمِثْلِ؟ هَلْ سَتَتَوَقَّفُ عَنِ الْإِنْبَحَارِ بِسَبَبِهَا؟»

أَجَابَ الْقُبْطَانُ: «إِنَّ حَيَاتِي مُخْتَلِفَةٌ؛ هَذِهِ هِيَ مِهْنَتِي، وَمِنْ وَاجِبِي أَنْ أَعْمَلَ بَحَّارًا. أَمَّا أَنْتَ، فَمَا حَدَثَ كَانَ تَجْرِبَةً أَوْ اخْتِبَارًا، وَفِي الْحَالَتَيْنِ لَمْ يُحَالِفْكَ التَّوْفِيقُ. فَلَوْ أَصْرَرْتَ عَلَى حَيَاةِ الْبَحْرِ، فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ مَا قَدْ يَحْدُثُ لَكَ.»

تَحَدَّثَ الْقُبْطَانُ بِجِدِّيَّةٍ عَنِ الْحِطِّ الطَّيِّبِ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّي أُدَاعِبُ الْمَوْتَ بِاسْتِمْرَارِي فِي السَّيْرِ وَرَاءَ أَحْلَامِي. وَانْجَرَفَ بِكَلَامِهِ بَعِيدًا حَتَّى قَالَ إِنَّ كُلَّ ذَلِكَ النَّحْسِ كَانَ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ فَعْلِي!

وَكَانَتْ آخِرُ كَلِمَاتِ قَالَهَا لِي: «روبسون، يُمَكِّنُكَ أَنْ تَتَأَكَّدَ مِنْ شَيْءٍ وَاحِدٍ؛ إِذَا تَجَاهَلْتَ رَغَبَاتِ وَالِدِكَ، فَسَوْفَ تَلْقَى حَيَبَةَ الْأَمَلِ وَالنَّكَبَاتِ.»
 أَوْمَأْتُ بِرَأْسِي وَسِرْتُ مُبْتَعِدًا. وَلَمْ أَرِ جُونَ أَوْ وَالِدَهُ قَطُّ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ. وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَسِيرُ، فَكَرْتُ مَلِيًّا فِيمَا قَالَهُ: فَمَاذَا إِنْ كَانَتْ الْعَاصِفَةُ إِشَارَةً؟ مَاذَا لَوْ كَانَتْ تَعْنِي أَنَّي لَا يَنْبَغِي لِي مُطْلَقًا أَنْ أَصِيرَ بَحَارًا؟
 وَقُلْتُ لِنَفْسِي: «رُبَّمَا يَنْبَغِي لِي الْإِكْتِفَاءُ بِإِحْصَاءِ النِّعَمِ الَّتِي أَمْلِكُهَا وَالْعَوْدَةَ لِبَلَدِي. فَمَاذَا لَوْ كَانَ عَلَيَّ صَوَابٌ وَتَلَاحِقَنِي لَعْنَةٌ؟» لَكِنِّي لَمْ أَسْتَطِعِ الْعَوْدَةَ لِلْبَيْتِ مُجْرَجًا أَدْيَالَ الْفَشْلِ، فَلَنْ يَفْخَرَ بِي أَبِي أَبَدًا. لَذَا ابْتَلَعْتُ شُكُوكِي وَسَافَرْتُ إِلَى لَنْدَنَ.

الفصل الرابع

رِحْلَةٌ إِلَى أَفْرِيقِيَا

تَعَاقَى حَظِّي الْعَاثِرُ فِي لُنْدَنَ. التَّقَيْتُ بِصُحْبَةِ حَسَنَةٍ وَقَابَلْتُ الْقُبْطَانَ كُولِبَرَ، الَّذِي كَانَ قَدْ عَادَ لِنَوِّهِ مِنْ أَفْرِيقِيَا. وَكَانَتْ رِحْلَتُهُ الْبَحْرِيَّةُ إِلَى أَفْرِيقِيَا نَاجِحَةً إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ حَتَّى إِنَّهُ كَانَ عَلَى وَشِكِ الْخُرُوجِ فِي رِحْلَةٍ أُخْرَى. تَقَاسَمْنَا الْعَدِيدَ مِنَ الْوُجَبَاتِ وَدَارَ بَيْنَنَا عَدَدٌ مِنَ الْأَحَادِيثِ الرَّائِعَةِ. وَعِنْدَمَا عَلِمَ الْقُبْطَانُ كُولِبَرَ بِرَغْبَتِي فِي رُؤْيَةِ الْعَالَمِ، قَرَّرَ أَنْ يَصْحَبَنِي مَعَهُ.

كَانَ الْقُبْطَانُ كُولِبَرَ رَجُلًا نَزِيهًا وَعَادِلًا؛ فَلَمْ يَكْتَفِ بِاسْتِنْجَارِي فِي رِحْلَتِهِ الْبَحْرِيَّةِ، بَلْ شَمَلَنِي بِرِعَايَتِهِ؛ فَسَاعَدَنِي فِي شِرَاءِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُمَكِّنُنِي الْمُتَاجِرَةَ بِهَا لِاتِّمَكَّنَ مِنْ جَنِّي رِبْحَ صَغِيرٍ. وَبَيْنَمَا كُنَّا مُبْحِرِينَ، عَلَّمَنِي أَيْضًا الْحِسَابَ وَالْمِلَاحَةَ وَالْعَدِيدَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْأُخْرَى الَّتِي يَحْتَاجُ الْبَحَّارَةُ إِلَى تَعَلُّمِهَا، وَأَسَدَى لِي نَصَائِحَ رَائِعَةً.

تَسَبَّبَتِ الْحَرَارَةُ الْمُرْتَفَعَةُ عَلَى الْأَرْضِ شَدِيدَةَ الْقُرْبِ مِنْ حَطِّ الْإِسْتِوَاءِ فِي إِصَابَتِي بِحُمَى شَدِيدَةٍ. فَفِي مُعْظَمِ الْوَقْتِ الَّذِي قَضَيْنَاهُ فِي الْجَنُوبِ، كُنْتُ مَرِيضًا. وَبَعْدَ مَا يَقَارِبُ الْعَامَ فِي الْبَحْرِ، عُدْنَا إِلَى لُنْدَنَ. وَلَمْ تَكُنِ الْعُودَةُ سَالِمًا الشَّيْءَ الطَّيِّبَ الْوَحِيدَ الَّذِي خَرَجْتُ بِهِ مِنْ رِحْلَتِي، بَلْ عَرَفْتُ أَنَّي تَاجِرٌ مَاهِرٌ، وَجَنَيْتُ رِبْحًا وَفِيرًا مِنْ بَضَائِعِي.

وَبِالرَّغْمِ مِنْ تَحَسُّنِ حَالَتِي الصَّحِيَّةِ لَدَى عَوْدَتِنَا لِلْأَجْوَاءِ الْأَكْثَرِ بُرُودَةً، فَقَدْ أُصِيبَ الْقُبْطَانُ كُولِبَرَ بِالْحُمَى نَفْسَهَا الَّتِي أَصَابْتَنِي لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَحْظُوظًا بِمَا يَكْفِي؛ إِذْ نُوفِّيَ بَعْدَ عَوْدَتِنَا بِقَلِيلٍ. وَافْتَقَدْتُهُ أَيَّمَا افْتِقَادٍ، فَقَدْ كَانَ صَدِيقًا وَفِيًّا وَمُعَلِّمًا مُخْلِصًا.

أَقْنَعَنِي نَجَاجِي كَتَّاجِرٍ بِأَنِّي أَصَبْتُ الْإِخْتِيَارَ، فَتَجَاهَلْتُ نَصِيحَةَ وَالِدِ جُونٍ، وَحَاوَلْتُ
أَلَّا يَعْتَصِرَنِي الْحُزْنُ عَلَى الْقُبْطَانِ كُولِبِر. وَعِنْدَمَا عَرَضَ عَلَيَّ نَائِبُ الْقُبْطَانِ مَكَانًا عَلَى
سَفِينَةٍ تُوَشِكُ عَلَى الْإِبْحَارِ إِلَى أَفْرِيْقِيَا، انْتَهَزْتُ الْفُرْصَةَ لِلذَّهَابِ مَعَ الْمُبْجِرِينَ، وَتَرَكْتُ
مُعْظَمَ ثَرَوَتِي حَدِيثَةَ الْعَهْدِ مَعَ أَرْمَلَةِ كُولِبِرٍ لِحِفْظِهَا، وَأَنْطَلَقْتُ فِي مُغَامَرَةٍ أُخْرَى.

الفصل الخامس

قَرَاصِنَةٌ!

قَدَرَ مَا تَغَيَّرَ حَظِّي لِلْأَفْضَلِ عِنْدَمَا وَصَلْتُ إِلَى لَنْدَنْ، أَصْبَحَ الْعَكْسُ بِالْعَكْسِ لِأَجْفَاءٍ؛ فَسُرْعَانَ مَا أَصْبَحَتْ رِحْلَتِي الْبَحْرِيَّةُ الثَّانِيَّةُ إِلَى أَفْرِيْقِيَا أَسْوَأَ رِحْلَةٍ لِي حَتَّى حِينِهِ. وَسُرْعَانَ مَا عَلِمْتُ أَنَّ هُنَاكَ مَا هُوَ أَسْوَأُ بِكَثِيرٍ مِنْ هَبَّةِ رِيحٍ وَالْإِنْقَاذِ فِي اللَّحْظَةِ الْآخِرَةِ! فَبَيْنَمَا شَقْتُ سَفِينَتَنَا طَرِيقَهَا إِلَى جُزْرِ الْكِنَارِيِّ، بَاعَتْنَا سَفِينَةُ قَرَاصِنَةٍ.

طَارَدُونَا لِسَاعَاتٍ مُنْطَلِقِينَ بِأَقْصَى سُرْعَةٍ، وَعِنْدَمَا لَحِقُوا بِنَا، كَانَتْ فُرْصَتُنَا الْوَحِيدَةُ لِلْبَقَاءِ هِيَ الْقِتَالُ، فَجَهَّزْنَا بِنَادِقِنَا لِلْمَعْرَكَةِ. وَاقْتَرَبَتْ سَفِينَةُ الْقَرَاصِنَةِ مِنْ مُؤَخَّرَةِ سَفِينَتِنَا. اتَّخَذْنَا الْمُخَاطِرَةَ وَأَطْلَقْنَا النَّارَ مِنْ بِنَادِقِنَا كُلِّهَا مُبَاشَرَةً عَلَى سَفِينَةِ الْمُحْتَالِينَ، وَرَدُّوا عَلَيَّ نِيرَانَنَا بِمَدَافِعِهِمْ الْكَبِيرَةِ.

وَبَدَأَ جَمِيعُ الْقَرَاصِنَةِ فِي إِطْلَاقِ النَّارِ مِنْ بِنَادِقِهِمْ بِدَوْرِهِمْ، لَكِنْ لَمْ تُصَبِّ أَحَدًا مِنْ رِجَالِنَا أَيُّ مِنْ طَلَقَاتِهِمْ!

لَمْ يَدُمْ هَذَا النَّصْرُ كَثِيرًا، وَخِلَالَ دَقَائِقَ كَانَ مَا يَقْرُبُ مِنَ السُّتَيْنِ قُرْصَانًا عَلَى سَطْحِ سَفِينَتِنَا. قَطَعُوا حِبَالَنَا بِسُيُوفِهِمْ، ثُمَّ مَزَقُوا أَشْرَعَتَنَا، لَكِنَّا أَجْبَرْنَاهُمْ عَلَى التَّقَهُفْرِ قَدَرَ اسْتِطَاعَتِنَا مُسْتَحْدِمِينَ بِنَادِقَنَا وَسُيُوفَنَا (وَأَبْعَدْنَاهُمْ عَنْ سَطْحِ سَفِينَتِنَا مَرَّتَيْنِ!) لَكِنَّ النَّصْرَ لَمْ يَبْدُ حَلِيفًا لَنَا، وَاسْتَسْلَمْنَا قَبْلَ أَنْ تُزْهَقَ أَيُّ نَفْسٍ.

أَخَذْنَا الْقَرَاصِنَةَ عَلَى سَفِينَتِهِمْ أُسْرَى، وَأَبْحَرْنَا إِلَى مِينَاءِ سِلا، عَلَى السَّاحِلِ الشَّمَالِيِّ لِأَفْرِيْقِيَا. وَبِيعَ مُعْظَمُ رِجَالِ السَّفِينَةِ فِي الْبِلَادِ عَبِيدًا. وَأَعْجَبَ بِي قَبْطَانُ الْقَرَاصِنَةِ لِشَبَابِي وَفِطْنَتِي؛ فَقَرَّرَ الْإِحْتِفَاطَ بِي.

وَبِذَلِكَ، فِي ضَرْبَةٍ وَاحِدَةٍ، تَحَوَّلْتُ مِنْ تَاجِرٍ إِلَى عَبْدٍ، فَكُنْتُ فِي مُنْتَهَى التَّعَاسَةِ. تَرَدَّدْتُ
 كَلِمَاتُ وَالِدِي فِي زِهْنِي، وَأَدْرَكْتُ أَنَّي سَأَظَلُّ أَبَدًا عَلَى هَذَا الْحَطِّ الْعَاشِرِ، فَرَغَبْتِي الْأُنَانِيَّةُ
 لِمُعَادَرَةِ دِيَارِي لَمْ يَكُنْ لِيُقَابِلَهَا شَيْءٌ سِوَى التَّعَاسَةِ.
 قَضَيْتُ أَيَّامًا طَوِيلَةً أَعْمَلُ فِي حَدِيقَةِ سَيِّدِي، وَكَذَلِكَ أَقُومُ بِالْعَدِيدِ مِنَ الْمَهَامِّ الْمُنْزَلِيَّةِ،
 لَكِنَّ قَلْبِي وَجَسَدِي تَاقَا إِلَى الْعُودَةِ لِلْبَحْرِ، حَيْثُ تَتَوَفَّرُ لِي عَلَى الْأَقَلِّ فُرْصَةٌ لِلْهَرَبِ، لَكِنَّ
 السَّيِّدَ لَمْ يَأْخُذْنِي قَطُّ إِلَى رِحْلَاتِهِ لِلصَّيْدِ، بَلْ كَانَ يَتْرُكُنِي لِلْعَمَلِ.
 شَعَرْتُ أَنَّ كُلَّ يَوْمٍ يَمُرُّ عَلَيَّ أَطْوَلَ مِنْ سَابِقِهِ، وَمَرَّتْ سَنَتَانِ بِبُطْءٍ. لَيْلَ نَهَارٍ لَمْ
 أَحْلُمُ بِشَيْءٍ سِوَى الْهَرَبِ. وَدُونَ أَصْدِقَاءٍ، لَمْ يَتَّبِقْ لِي سِوَى أَفْكَارِي لِتُونِسَ وَحَدَّتِي. كَانَ
 الْعَمَلُ شَاقًّا وَالشَّمْسُ مُحْرِقَةً. فَهَلْ سَأَقْضِي بَقِيَّةَ حَيَاتِي عَلَى هَذَا الْمُنْوَالِ؛ عَالِقًا فِي بَلَدٍ
 غَرِيبٍ، عَبْدًا لِسَيِّدٍ بَغِيضٍ؟

الفصل السادس

فُرْصَةُ الْهَرَبِ

أَخِيرًا، فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ صَحْبَنِي سَيِّدِي أَنَا وَعَبْدًا آخَرَ، يُدْعَى إِسْمَاعِيلَ، لِصَيْدِ السَّمَكِ مَعَهُ، لَكِنَّ الْجَوْ تَغَيَّرَ سَرِيعًا فِي غَيْرِ صَالِحِنَا، فَعَلِقْنَا فِي ضَبَابٍ كَثِيفٍ، وَعِنْدَمَا تَمَكَّنَّا مِنَ الرُّؤْيَةِ بِوُضُوحٍ، أَبْحَرْتُ أَنَا وَإِسْمَاعِيلُ بَعِيدًا بَدَلًا مِنَ الْعُودَةِ لِلْمَنْزِلِ. وَبَعْدَمَا لَاقَيْنَا بَعْضَ الْمَشَقَّةِ، جَدَفْنَا بِأَمَانٍ عَائِدَيْنِ إِلَى الشَّاطِئِ.

حَدَّثَ أَمْرَانِ بَعْدَ ذَلِكَ جَعَلَانِي أَفْكَرٌ فِي كَيْفِيَّةِ الْهُرُوبِ؛ الْأَوَّلُ: كَانَ سَيِّدِي قَدْ اسْتَعَانَ بِنَجَارٍ لِإِصْلَاحِ قَارِبِ الصَّيْدِ، فَأَصْبَحَ حِينئِذٍ أَكْثَرَ اسْتِعْدَادًا لِخَوْضِ الْبَحَارِ فِي رِحَلَاتٍ أَطْوَلَ.

وَجَالَتْ بِخَاطِرِي الْفِكْرَةُ: «إِنَّ الْقَارِبَ الْجَدِيدَ مَتِينٌ، وَيُمْكِنُنِي الْإِبْتِعَادُ عَلَى مَتْنِهِ عَنْ مِينَاءِ سِلا إِذَا أُتِيحَتْ لِي الْفُرْصَةُ!» يَا لِلْحَظِّ الْحَسَنِ الَّذِي جَعَلَ حَادِثَتَنَا تَخِيفُ سَيِّدِي! بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأُسْبُوعِ نَفْسِهِ، حَطَّطَ سَيِّدِي لِإِقَامَةِ أُمْسِيَّةٍ مُمْتَعَةٍ عَلَى الْقَارِبِ لِبَعْضِ الْأَصْدِقَاءِ، وَكَانَ هَذَا هُوَ الْأَمْرَ الثَّانِي الَّذِي تَصَادَفَ وَفُوعُهُ لِمُسَاعَدَتِي فِي الْهَرَبِ. وَأَمْرِي بِتَخْزِينِ كَمِّيَّاتٍ مِنَ الْمُونِ، وَكَذَلِكَ كَانَ عَلَيَّ تَلْمِيعُ الْقَارِبِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِ، وَتَرْبِيئُهُ مِنْ أَجْلِ الْحَقْلِ.

وَفِي الْيَوْمِ اللَّاحِقِ، وَقَبْلَ عَشْرِ دَقَائِقَ فَقَطُ مِنَ الْمَوْعِدِ الْمَحْدَدِ لِمُغَادَرَتِنَا، جَاءَ السَّيِّدُ وَصَعَدَ إِلَى الْمَرْكَبِ بِخَطُواتٍ ثَقِيلَةٍ. وَكَانَ غَاضِبًا! وَبَدَأَ لِي أَنَّ أَصْدِقَاءَهُ عَزَفُوا عَنْ قِضَاءِ الْيَوْمِ فِي الْبَحْرِ، فَأَمْرِي بِإِصْطِحَابِ إِسْمَاعِيلِ وَقِصُورِي، وَهُوَ عَبْدٌ آخَرٌ، لِلصَّيْدِ. فَحَتَّى

لَوْ لَمْ يَذْهَبُوا لِلْبَحْرِ، فَلَا يَزَالُ السَّيِّدُ يُرِيدُ أَنْ يُطْعِمَ أَصْدِقَاءَهُ سَمَكًا طَارِجًا فِي الْعِشَاءِ الْخَاصِّ.

فَكَرَّتْ بِحَمَاسٍ: «تِلْكَ هِيَ فُرْصَتِي! يُمَكِّنِي الْهَرَبُ!» لَكِنْ كَيْفَ؟ أَقْنَعْتُ إِسْمَاعِيلَ أَنَّنَا يَجِبُ أَلَّا نَأْكُلَ طَعَامَ السَّيِّدِ، لِذَا اخْتَرْنَا فِي الْقَارِبِ مَوْثًا أَكْثَرَ.

وَبَيْنَمَا كَانَ هُوَ بَعِيدًا يُعِدُّ لَنَا الْأَعْرَاضَ، أَسْرَعْتُ فِي إِحْضَارِ بَعْضِ الْأَشْيَاءِ الْأُخْرَى الَّتِي قَدْ نَحْتَاجُ إِلَيْهَا: شُمُوعٌ وَمِنْشَارٌ وَمِطْرَقَةٌ وَبَعْضُ حَبُوطِ الْقَنْبِ وَفَاسٌ.

وَبَعْدَهَا، تَحَايَلْتُ عَلَى قِصُورِي لِيجِدَ لَنَا بَعْضَ الْبَارُودِ، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّنَا يُمَكِّنُنَا صَيْدُ

بَعْضِ الطُّيُورِ الْبَرِّيَّةِ لِنَتَعَشَّى بِهَا. فَقَالَ لِي مُبْتَسِمًا: «نَعَمْ، يَا لَهَا مِنْ فِكْرَةٍ رَائِعَةٍ بِالْفِعْلِ!» وَبَعْدَ بَضْعِ دَقَائِقٍ، كُنَّا مُسْتَعِدَّيْنِ، وَأَبْحَرَ ثَلَاثَتُنَا بِاتِّجَاهِ الْمِيَاءِ. وَتَغَلَّبْنَا عَلَى الصَّعَابِ

لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ، وَبَعْدَهَا نَكَّسْنَا أَشْرَعَتَنَا لِلصَّيْدِ. فِي هَذَا الْيَوْمِ، كَانَتِ الرِّيَّاحُ تَهُبُّ مِنْ جِهَةِ

الشَّمَالِ وَالشَّمَالِ الشَّرْقِيِّ، وَكُنْتُ أَرْجُو أَنْ تَأْتِيَ الرِّيَّاحُ مِنَ الْجَنُوبِ؛ فَبِهَا، يُمَكِّنُنِي الْإِبْحَارُ إِلَى إِسْبَانِيَا، لَكِنِّي لَمْ أَقْنَطُ؛ فَأَيُّ رِيَّاحٍ كَانَتْ سَتَحْمِلُنِي بَعِيدًا عَنِ سَجْنِي الَّذِي أَقْبَعُ فِيهِ

عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ، فَكُنْتُ فَرِحًا لِمَجْرَدِ التَّفَكُّيرِ فِي الْهُرُوبِ إِلَى الْحُرِّيَّةِ.

وَكَانَ الْهُرُوبُ إِذَا أَنْ يَحْدُثَ حِينَهَا أَوْ لَا يَحْدُثَ أَبَدًا.

قُلْتُ: «إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ الْمِيَاءَ أَصْبَحَتْ بَارِدَةً هُنَا، فَأَنَا لَا أَصْطَادُ أَيَّ شَيْءٍ، دَعْنَا نُجْرُ

أَبْعَدَ قَلِيلًا.»

أَوْمَأَ بِرَأْسِهِ مُوَافِقًا وَرَفَعَ الْأَشْرَعَةَ، وَسِرْنَا فَرَسًا آخَرَ فِي دَاخِلِ الْبَحْرِ. وَقَبْلَ أَنْ

يُسْقَطَ الْمِرْسَاةُ مَبَاشَرَةً، اقْتَرَبْتُ مِنْهُ مِنَ الْخَلْفِ وَقَدَفْتُ بِهِ مِنْ فَوْقِ سَطْحِ الْمَرْكَبِ.

فَصَرَخَ إِسْمَاعِيلُ وَصَاحَ: «دَعْنِي أَعُودُ إِلَى سَطْحِ الْمَرْكَبِ! مَاذَا تَفْعَلُ يَا رُوبِنْسُونُ؟ سَوْفَ

تَنْسَبِبُ بِمَقْتَلِكَ!»

فَأَجَبْتُهُ صَاحًا: «أَنْتَ سَبَّاحٌ مَاهِرٌ. عُدْ إِلَى الشَّاطِئِ يَا إِسْمَاعِيلُ، أَمَا أَنَا فَسَاطَهْرُبُ،

وَلَا سَبِيلَ أَمَامَكَ لِإِقْفَانِي!» فَأَوْمَأَ بِرَأْسِهِ، وَقَبِلَ مَصِيرَهُ، وَبَدَأَ يَسْبَحُ.

وَقَفَّ قِصُورِي عَلَى سَطْحِ الْمَرْكَبِ مُرْتَعِشًا، فَكَانَ خَائِفًا مِنْ أَنْ أَقْدَفَهُ مِنْ عَلَى سَطْحِ

الْمَرْكَبِ هُوَ الْآخَرُ.

— «قِصُورِي، لَا بَدْءَ أَنْ تُقْسِمَ عَلَى مُسَاعَدَتِي، وَإِلَّا سَتَلْحَقُ بِإِسْمَاعِيلِ فِي الْبَحْرِ!» لَمْ

يَكُنْ بِمَقْدُورِ قِصُورِي أَنْ يَسْبَحَ بِهَذِهِ الْمَهَارَةِ، لِذَا قَبِلَ بِشُرُوطِي عَلَى الْفُورِ.

فُرْصَةُ الْهَرَبِ

عَلَى مَدَى السَّاعَاتِ الْقَلِيلَةِ اللَّاحِقَةِ، أَبْحَرْتُ بِاتِّجَاهِ مَضِيقِ جَبَلِ طَارِقٍ، فَحَتَّمًا
سَيُخْبِرُ إِسْمَاعِيلُ سَيِّدَنَا أَيَّ اتِّجَاهٍ سَلَكْنَا؛ لِيَا أَرْدُنَّه أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّي ذَاهِبٌ إِلَى السَّاحِلِ
الإِسْبَانِيِّ، وَبِمَجَرَّدِ هُبُوطِ الْعَسَقِ، رَجَعْتُ بِالْقَارِبِ، فَكَانَ اتِّجَاهُنَا الْجَدِيدُ صَوْبَ الْجَنُوبِ.
وَكَانَتْ مِنْطَقَةٌ مُخِيفَةً وَمَجْهُولَةً، لَكِنَّهَا أَفْضَلُ مِنْ أَنْ يُدْرِكَنَا أَحَدٌ، وَلَمْ أُرِدْ أَبَدًا أَنْ أَعُودَ
لِلْعُبُودِيَّةِ مِنْ جَدِيدٍ.

الفصل السابع

الأحرازُ

أَبْحَرْنَا لِمُدَّةِ خَمْسَةِ أَيَّامٍ قَبْلَ أَنْ نَتَوَقَّفَ. كُنَّا حِينِيذٍ بَعِيدَيْنِ بِمَا يَكْفِي عَنْ مِينَاءِ سِلا ثُمَّ
أَبْحَرْنَا إِلَى أَعَالِي نَهْرِ عَظِيمٍ، لَكِنِّي لَمْ أَعْرِفْ تَحْدِيدًا أَيْنَ كُنَّا، لَكِنَّ هَذَا لَمْ يُهَمِّني، تَكْفِينِي
حُرِّيَّتِي. إِلَّا أَنَّ قَاصُورِي لَمْ يَكُنْ مُتَحَمِّسًا مِثْلِي لِلإِبْتِعَادِ عَنِ السَّيِّدِ، فَكَانَ مَدْعُورًا؛ وَكُلَّمَا
أَبْحَرْنَا إِلَى أَعَالِي النَّهْرِ، ازْدَادَ رَجَاءً إِلَّا نَذَهَبَ إِلَى الشَّاطِئِ، وَخَاصَّةً بَعْدَ سَمَاعِنَا أَصْوَاتًا
عَالِيَةً لِحَيَوَانَاتٍ لَا نَعْرِفُهَا. وَمَالَتِ الشَّمْسُ لِلْمَغِيبِ، فَفَعَلْتُ كَمَا طَلَبَ مِنِّي قَاصُورِي وَلَمْ
أُغَامِرْ بِالنُّزُولِ مِنَ الْمَرْكَبِ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، فَرَقَدْنَا عَلَى سَطْحِ الْمَرْكَبِ، وَنَظَرْنَا حَوْلَنَا نَتَرَقَّبُ.
بَعْدَهَا بِقَلِيلٍ وَقَعَ أَمْرٌ مَا! وَحُوشٌ ضَخْمَةٌ جَاءَتْ إِلَى الشَّاطِئِ، مُصْدِرَةً أَصْوَاتًا عَالِيَةً
وَمُرْعَبَةً، أَصْوَاتًا مُخِيفَةً لَمْ تَسْمَعْهَا أُذُنَايَ مِنْ قَبْلُ.

انْخَلَعَ قَلْبَانَا مِنَ الرُّعْبِ، وَعِنْدَمَا سَبَحَ أَحَدُ الْوُحُوشِ تَجَاهَنَا فَزِعْنَا! مَاذَا لَوْ وَصَلَ إِلَى
الْمَرْكَبِ؟ مَاذَا لَوْ صَعِدَ إِلَى سَطْحِ الْمَرْكَبِ؟ مَاذَا لَوْ أَغْرَقَ الْمَرْكَبُ؟ مَاذَا سَنَفْعَلُ حِينَهَا؟
هَزَوْلْتُ مُسْرِعًا وَأَمْسَكْتُ بِأَحَدِ بِنَائِقِنَا وَأَطْلَقْتُ النَّارَ فِي الْهُوَاءِ لِأُخِيفَهُ، وَوَقَعَ مَا أَرَدْتُهُ!
فَأَسْرَعَ الْوُحُوشُ وَسَبَحَ عَائِدًا إِلَى الشَّاطِئِ.
تَسَاءَلَ قَاصُورِي: «مَاذَا سَنَفْعَلُ؟»

أَجَبْتُهُ: «حَسَنًا، إِنَّا نَحْتَاجُ إِلَى مِيَاهِ الشُّرْبِ، فَلَمْ يَتَبَقَّ مَعَنَا أَيُّ مِنْهَا. وَبِالرُّغْمِ مِنْ
فَزِعِنَا، عَلَيْنَا الذَّهَابُ لِلشَّاطِئِ عَدَا.»

ارْتَفَعَتِ الشَّمْسُ بَاكِرًا فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِيِ، وَجَدَفْنَا بِبُطْءٍ نَحْوَ الْيَابِسَةِ، وَالْقَيْنَا
بِالْمِرْسَاةِ. وَبَعْدَهَا، قَفَزْتُ أَنَا وَقَاصُورِي وَسَبَحْنَا سَرِيعًا قَدْرَ اسْتِطَاعَتِنَا إِلَى الشَّاطِئِ.

فَكُنْتُ أَحْسَى أَنْ يَسْرِقَ مَرْكَبَنَا أَهْلُ الْبَلَدِ؛ لِذَا لَمْ أُرِدِ الذَّهَابَ بِهَا تَجَاهَ الشَّاطِئِ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي، فَقَدْ سَمِعْتُ قِصَصًا مُرِيعةً عَنِ بَحَّارَةٍ عَلِقُوا فِي بَلَدٍ غَرِيبٍ مَعَ أَشْخَاصٍ غَيْرِ وَدُودِينَ يَسْرِقُونَ قَوَارِيهِمْ وَجَمِيعَ أَمْعِيَّتِهِمْ، وَلَمْ يُسْمَعْ عَنِ هَؤُلَاءِ الْبَحَّارَةِ ثَانِيَةً قَطُّ! وَقَالَ قِصُورِي إِنَّهُ سَيَتَحَلَّى بِالشَّجَاعَةِ وَسَيَذْهَبُ لِإِحْضَارِ مَاءِ الشُّرْبِ. فَجَلَسْتُ بِجَانِبِ الْمَرْكَبِ أُرَاقِبُ بِمِنْظَارِي.

وَبَعْدَ وَقْتٍ قَلِيلٍ، جَاءَ عَدُوًّا، فَظَنَنْتُ أَنَّ هُنَاكَ مَا يَلَاحِظُهُ؛ لِذَا جَرَيْتُ نَحْوَهُ لِأَرَى إِنْ كُنْتُ أَسْتَطِيعُ الْمُسَاعَدَةَ. وَعِنْدَمَا وَصَلْتُ إِلَيْهِ، أَرَانِي قِصُورِي بِفَخْرٍ أَنَّهُ اصْطَادَ حَيَوَانًا بَرِّيًّا، بَدَأَ كَأَنَّهُ أَرْنَبٌ بَرِّيٌّ، لَكِنَّ الْوَانَةَ مُخْتَلِفَةٌ وَأَرْجُلُهُ أَطْوَلُ، مِنْ الْمُوَكَّدِ أَنَّ هَذِهِ الْأَرْضُ مَلِيئَةٌ بِالْعَجَائِبِ!

صَحْتُ مِنَ الْمُفَاجَأَةِ: «حَسَنًا فَعَلْتَ يَا قِصُورِي!»
أَكَلْنَا حَتَّى شَبِعْنَا هَذِهِ اللَّيْلَةَ، وَكُنَّا فِي غَايَةِ السَّعَادَةِ لِعُثُورِنَا عَلَى الْمَاءِ وَالْغِذَاءِ دُونَ أَنْ نَلْقَى أَيًّا مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ أَوْ تِلْكَ الْوُحُوشِ الَّتِي أَرَعَبْتَنَا لَيْلَةَ الْأَمْسِ.
دَفَعْتَنِي رِحْلَاتِي السَّابِقَةَ لِسَاحِلِ شِمَالِ أُفْرِيْقِيَا إِلَى التَّفَكُّيرِ بِأَنَّنا كُنَّا عَلَى وَشِكِ الْوُصُولِ إِلَى جُزْرِ الْكِنَّارِي، لَكِنَّ بَدُونِ الْمُعَدَّاتِ، لَا يُمَكِّنُنِي الْجُزْمُ بِمَكَانِنَا بِالضَّبْطِ. فَبِدُونِ مَعْرِفَةِ مَكَانِ اتِّجَاهِنَا، وَاصِلْنَا الْإِبْحَارَ بِمَحَاذَةِ الشَّاطِئِ. وَكَانَ أَمَلِي هُوَ مُصَادَفَةَ سَفِينَةِ تِجَارَةٍ إِنْجِلِيزِيَّةٍ يُمَكِّنُهَا أَنْ تُعِيدَنَا إِلَى وَطَنِي.

أُبْحَرْنَا بِمَحَاذَةِ مَنَاظِرٍ طَبِيعِيَّةٍ مُزْدَهَرَةٍ مَلِيئَةٍ بِالْحَيَوَانَاتِ الْمُثِيرَةِ. وَلَمْ نَتَعَرَّفْ عَلَى الْعَدِيدِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي تَجَوَّلَتْ حَوْلَنَا، لَكِنَّا أَيْضًا تَعَرَّفْنَا عَلَى الْعَدِيدِ مِنْهَا مِثْلَ الْأُسُودِ وَالنُّمُورِ وَالْفُهُودِ. وَكُنَّا نَتَوَقَّفُ كُلَّ يَوْمٍ لِنَبْحَثَ عَنِ الْمَزِيدِ مِنْ مِيَاهِ الشُّرْبِ. وَاسْتَمَرَرْنَا عَلَى هَذَا النُّحُوِّ كَثِيرًا دُونَ أَنْ نَرَى أَشْخَاصًا، حَتَّى اقْتَنَعْتُ بِأَنَّ لَا أَحَدَ يَعْيشُ فِي هَذِهِ الْأَرْجَاءِ.

الفصل الثامن

السَّفِينَةُ الْإِنْجِلِيزِيَّةُ

مَرَّتْ عَشْرَةُ أَيَّامٍ أُخْرَى قَبْلَ أَنْ نُصَادِفَ إِنْسَانًا غَيْرَنَا. أما عن قَابِلْنَا مِنَ النَّاسِ بَعْدِيذِ، فَكَانُوا وَدُودِينَ وَمُتَعَاوِينَ، وَكَانُوا يَزْتَدُونَ الْقَلِيلَ مِنَ الْمَلَابِسِ وَلَا يَتَكَلَّمُونَ بِنَفْسِ لُغَتِنَا، لَكِنَّهُمْ كَانُوا فِي غَايَةِ الْكَرَمِ؛ فَأَعْطَوْنَا الْغِذَاءَ وَالْمَاءَ مَعَ أَنَّ لَمْ نَمَكِّ شَيْئًا لِنُعْطِيَهُمْ إِيَّاهُ فِي الْمَقَابِلِ.

وَمَعَ أَنْ هُوَلَاءِ الْغُرَبَاءِ كَانُوا فِي غَايَةِ اللَّطْفِ، كُنَّا لَا نَزَالُ بِحَاجَةٍ إِلَى إِجَادِ سَفِينَةٍ إِنْجِلِيزِيَّةٍ؛ فَقَارِبْنَا الصَّغِيرُ لَمْ يَكُنْ مُعَدًّا لِيَحْتَمَلَ كُلَّ هَذَا الْإِبْحَارِ، وَكَانَتْ فُرْصَتُنَا الْوَحِيدَةُ لِلنَّجَاةِ هِيَ أَنْ يُنْقِذَنَا أَحَدٌ. لَمْ أُخْبِرْ قُصُورِي بِقَلْقِي عَلَيْنَا بِشَأْنِ اجْتِيَاكِ هَذِهِ الْمِحْنَةِ؛ فَلَمْ أُرِدْ لَهُ الْخَوْفَ أَوْ الْإِحْبَاطَ.

ظَلَلْنَا نُجِرُ، وَمَرَّ أُسْبُوعٌ آخَرُ، وَأَخِيرًا مَرَرْنَا عَلَى بَعْضِ الْعَلَامَاتِ الَّتِي تَعَرَّفْتُ عَلَيْهَا. فَعَلَى مَسَافَةٍ مَا يَقْرُبُ مِنْ ثَلَاثَةِ فَرَاسِخٍ مِنَ السَّاحِلِ، تَمَكَّنْتُ مِنْ رُؤْيَةِ جُزْرِ الرَّأْسِ الْأَخْضَرِ، فَأَطْلَقْتُ صَيْحَةً فَرَحًا!

سَأَلَنِي قُصُورِي: «مَاذَا هُنَالِكَ يَا رُوبِنْسُون؟»

أَشْرْتُ عَبْرَ الْمَنَاطِرِ الطَّبِيعِيَّةِ وَقُلْتُ لَهُ: «هَلْ تَرَى هَذِهِ الْجُزْرَ؟ مِنْ هُنَا سَنَصِلُ إِلَى إِنْجِلِيزَا! أَصْبَحْنَا فِي أَمَانٍ، لَقَدْ نَجَوْنَا يَا قُصُورِي! نَجَوْنَا!»

سَرِيعًا مَا تَحَوَّلَتْ ابْتِسَامَتِي إِلَى عُبُوسٍ عِنْدَمَا أَمَعَنْتُ التَّفَكِيرَ فِي مَوْقِفِنَا، فَإِذَا انْطَلَقْنَا عَبْرَ الْبَحْرِ الْمُمْتَدِّ وَعَلَقْنَا فِي رِيَاكِ مُعَاكِسَةٍ، سَنَنْجِرُ وَلَنْ يَبْقَى لَنَا أَيُّ أَثَرٍ. فَذَهَبْتُ

لِلدَّخْلِ لِلجُلُوسِ فِي حُجْرَتِي الصَّغِيرَةِ — حُجْرَةِ القُبْطَانِ — لِلتَّفْكِيرِ فِي الخَيْرَاتِ المَتَاحَةِ
أَمَامَنَا.

سَمِعْتُ قَاصِرِي يُبَادِينِي مِنَ الخَارِجِ: «يَا رُوبِنْسُونُ! أَرَى سَفِينَةً! أَرَى سَفِينَةً!»
وَكَانَتْ حَقِيقَةً، هُنَاكَ سَفِينَةٌ! وَبَدَتْ بُرْتَعَالِيَّةٌ. أَحَدْتُ المِنْظَارَ وَبَدَأْتُ أَنْظُرَ بِتَمَعُنٍ
لَأَرَى إِذَا كَانَتْ مُتَّجِهَةً إِلَى الشَّاطِئِ. يَا لِلْخَسَارَةِ، لَمْ نَكُنْ مَحْظُوظِينَ بِمَا يَكْفِي، فَالسَّفِينَةُ
كَانَتْ تَبْجُرُ بَعِيدًا عَنَّا.

فَجَالَ فِي خَاطِرِي: «أَوَاهُ، لَا! لَنْ أَدْعَهُمْ يَذْهَبُونَ دُونَ أَنْ أَحَاوِلَ عَلَى الأَقْلِ أَنْ أُجَذِبَ
انْتِبَاهَهُمْ.»

قُلْتُ صَاحِحًا: «هَيَّا، يَا قَاصِرِي! دَعْنَا نَحَاوِلَ وَنَلْحَقَ بِهِمْ.» وَرَفَعْنَا أَكْبَرَ قَدْرٍ مِنَ
الأَشْرَعَةِ يُمكنُ لِمَرْكَبِنَا الصَّغِيرِ أَنْ يَتَحَمَّلَهُ بِهِ، وَلَاحَقْنَا السَّفِينَةَ بِأَكْبَرِ سُرْعَةٍ مُمكنَةٍ، لَكِنْ
سَرِيعًا مَا اتَّضَحَ أَنَّنَا لَنْ نَلْحَقَ بِهِمْ أَبَدًا.

وَتَسَاءَلَ قَاصِرِي: «مَاذَا نَفْعَلُ الآنَ، يَا رُوبِنْسُونُ؟»

قُلْتُ: «الْبِنَادِقُ! عَلَيْنَا أَنْ نَطْلُقَ النَّارَ مِنَ البِنَادِقِ وَنَأْمُلُ أَنْ يَسْمَعُونَا!»

هُرَعَ كُلُّ مَنْأٍ إِلَى بِنَادِقِنَا وَبَدَأْنَا فِي إِطْلَاقِ النَّارِ، وَتَمَنَّيْتُ وَدَعَوْتُ أَنْ تَسْمَعَ السَّفِينَةُ
الأُخْرَى إِشَارَةَ الإِسْتِغَاثَةِ.

لَمَلَمْتُ السَّفِينَةَ الأُخْرَى أَشْرَعَتَهَا وَأَبْطَأَتِ السَّيْرَ! فَابْتَسَمْتُ ابْتِسَامَةً عَرِضَةً
لِقَاصِرِي وَقُلْتُ: «لَقَدْ سَمِعُوا طَلْقَاتِنَا! سَوْفَ يَنْتَظِرُونَنَا. هَيَّا بِنَا، لِنَذْهَبْ!»

اسْتَعْرَقْنَا ثَلَاثَ سَاعَاتٍ لِنَلْحَقَ بِهِمْ، وَعِنْدَمَا وَصَلْنَا بِمَحَادَاتِهِمْ، صَاحَ الرَّجَالُ مِنْ
عَلَى سَطْحِ سَفِينَتِهِمْ يَكْلِمُونَنَا بِلُغَاتٍ عَدِيدَةٍ مُخْتَلِفَةٍ؛ أَوَّلًا حَاوَلُوا بِالْبُرْتَعَالِيَّةِ، وَبَعْدَهَا
الإِسْبَانِيَّةِ، ثُمَّ الفَرَنْسِيَّةِ، لَكِنَّا لَمْ نَسْتَطِعْ فَهْمَ أَيِّ مِنْهَا، وَأَخِيرًا تَكَلَّمَ بَحَّارُ اسْكُتْلَنْدِيٍّ مِنْ
عَلَى سَفِينَتِهِمْ صَاحِحًا: «مَنْ أَنْتُمْ؟ وَمَاذَا حَدَثَ؟»

شَرَحْتُ لَهُ أَنَّنِي كُنْتُ بَحَّارًا إِنْجِلِيزِيًّا وَأَسْرَنِي القَرَّاصِنَةُ، وَقُلْتُ لَهُ إِنَّنِي قَضَيْتُ
السَّنَوَاتِ القَلِيلَةَ المَاضِيَةَ فِي الأَسْرِ كَعَبْدٍ، وَأَنْبَهَرَ البَحَّارَةُ مِنْ تَمَكُّنِنَا مِنَ الهَرَبِ، فَأَخَذُونِي
أَنَا وَقَاصِرِي عَلَى سَطْحِ سَفِينَتِهِمْ، وَأَخِيرًا نَجَوْنَا!

كَانَ قُبْطَانُ السَّفِينَةِ طَيِّبًا جِدًّا، فَعِنْدَمَا عَرَضْتُ عَلَيْهِ كُلَّ مَا أَمْلِكُ مِنْ أَشْيَاءَ مُقَابِلَ
رِحْلَةِ أَمْنَةٍ إِلَى البَرَّازِيلِ، ابْتَسَمَ وَقَالَ: «سَأَخْذُكُمْ مَعِيَ إِلَى البَرَّازِيلِ، وَلَا دَاعِي لِدَفْعِ مُقَابِلِ.»

شَكَرْتُهُ عَلَى طَيِّبَتِهِ، وَكَانَ الْقُبْطَانُ كَذَلِكَ رَجِيمًا جِدًّا مَعَ قَصُورِي وَأَعْطَاهُ فِي الْحَالِ وَظَيْفَةَ بَحَارٍ عَلَى السَّفِينَةِ، مِمَّا أَسْعَدَ قَصُورِي أَيْمًا سَعَادَةً. وَعِنْدَمَا ظَنَنْتُ أَنَّ رَحْمَتَهُ لَنْ تَتَّسِعَ لِأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، عَرَضَ عَلَيْنَا شِرَاءَ مَرْكَبِنَا الصَّغِيرِ! فَوَافَقْتُ عَلَى عَرْضِهِ فِي الْحَالِ، وَإِضَافَةً إِلَى الْمَرْكَبِ، اشْتَرَى بَعْضَ عَتَادِنَا الْأَخَرَ أَيْضًا.

حَظِينَا بِرِحْلَةٍ أَمْنَةٍ وَسَعِيدَةٍ إِلَى الْبِرَازِيلِ، وَحَصَلْتُ عَلَى الْمَالِ مِنَ الْقُبْطَانِ الطَّيِّبِ، مِمَّا يَعْنِي أَنَّي لَمْ أَكُنْ مُفْلِسًا تَمَامًا عَلَى أَرْضِ غَرِيبَةٍ لَمْ تَطَأْهَا قَدَمَائِي مِنْ قَبْلُ. وَأَقَمْتُ مَعَ أَحَدِ أَصْدِقَاءِ الْقُبْطَانِ، وَكَانَ يَمْتَلِكُ وَيُدِيرُ مَزْرَعَةً كَبِيرَةً لِلسُّكَّرِ، وَبَدَأَ عَمَلَ زِرَاعَةِ السُّكَّرِ شَائِقًا فِي رَأْيِي؛ لِذَا حَاوَلْتُ التَّعَلُّمَ قَدْرَ مَا اسْتَطَعْتُ.

اسْتَهْوَتْني حَيَاةُ الزَّرَاعَةِ، وَبِالْمَالِ الَّذِي أَخَذْتُهُ مِنَ الْقُبْطَانِ الطَّيِّبِ، اشْتَرَيْتُ قِطْعَةً أَرْضٍ كَبِيرَةً وَجَيِّدَةً، وَحَطَّطْتُ لِإِقَامَةِ مَزْرَعَةٍ سُّكَّرٍ مِثْلِ الْمَزْرَعَةِ حَيْثُ كُنْتُ أُقِيمُ. وَكَانَتْ فُرْصِي عَظِيمَةً فِي الْبِرَازِيلِ، لَكِنْ لِكَيْ أَبْقَى كُنْتُ أَحْتَاجُ لِخَطَابِ تَجْنِيسِ، وَكَمَا عَرَفْتُ لَمْ يَكُنْ الْحُصُولُ عَلَيْهِ عَسِيرًا.

الفصل التاسع

حَيَاةُ الزَّرَاعَةِ

عَلَى مَدَى السَّنَتَيْنِ اللَّاحِقَتَيْنِ، تَوَسَّعَتْ رُقْعَةُ أَرْضِيَّ وَزَادَتْ مَحَاصِيلِي، وَلَكِنَّ إِنْتَاجِي كَانَ قَلِيلًا، وَكَانَ بِالْأَسَاسِ يَسُدُّ حَاجَتِي وَحَاجَةَ طَاقِمِ الْعَمَلِ مِنَ الْغَدَاءِ وَيُحَافِظُ عَلَيَّ صِحَّتِي. وَمَعَ هَذَا، بَدَتْ بَشَائِرُ النَّجَاحِ مُبْهَرَةً، وَكُنْتُ سَعِيدًا بِتَقْدُمِي حَتَّى ذَلِكَ الْحِينِ.

كَانَ هُنَاكَ شَابٌّ صَغِيرٌ يَمْتَلِكُ الْمَزْرَعَةَ الْمَجَاوِرَةَ لِمَزْرَعَتِي، وَكَانَ بُرْتَعَالِيًّا بِالْمِيلَادِ، وَلَكِنَّ أَبُوهُ كَانَا إِنْجِلِيزِيَّيْنِ، وَكَانَ يُدْعَى وَيْلز. أَصْبَحْنَا صَدِيقَيْنِ عَزِيزَيْنِ، بَلْ وَحَتَّى جَارَيْنِ فَاضِلَيْنِ. وَعَلَى مَدَى هَاتَيْنِ السَّنَتَيْنِ، نَمَتْ مَزَارِعُنَا بِنَفْسِ السَّرْعَةِ تَقْرِيبًا، فَكَانَ كُلُّ مِنَّا يُجِيدُ طَرِيقَتَهُ فِي امْتِلَاكِ مَزَارِعِ قَصَبِ سُكَّرٍ نَاجِحَةٍ.

كُنْتُ أَنَا وَوَيْلزُ فِي الْعَادَةِ نَسِيرُ فِي جَوْلَاتٍ طَوِيلَةٍ مَعًا. تَحَدَّثْنَا فِي كُلِّ شَيْءٍ: مَزَارِعُنَا وَخَطَطُنَا لِلْمُسْتَقْبَلِ وَمَاضِينَا، وَأَذْكُرُ أَنَّنِي أَخْبَرْتُهُ يَوْمًا مَا أَنَّنِي أَشْعُرُ كَأَنِّي رَجُلٌ عَلِقُ فِي جَزِيرَةٍ مَهْجُورَةٍ هُنَاكَ فِي الْبِرَازِيلِ، وَأَخْبَرْتُهُ عَنِّي وَالِدِي، وَعَن مَدَى اشْتِيَاقِي إِلَيْهِ هُوَ وَوَالِدَتِي.

قَالَ إِنَّهُ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ أَفْتَقِدَ وَالِدِيَّ. وَكَانَ مُحَقِّقًا، فَكَانَ أَبِي لَيْسَعَدَ بِرُؤُوسِي؛ إِذْ بَنَيْتُ حَيَاةَ كَرِيمَةً، وَكُنْتُ سَعِيدًا فِيهَا وَأَمِنًا، وَفِي طَرِيقِي لِأَصْبِحَ تَرِيًّا. جَنِينًا مُحْصُولًا جَيِّدًا فِي السَّنَةِ التَّالِيَةِ كَذَلِكَ. وَكَانَ لَدَيَّ كُلُّ مَا قَدْ يَتَمَنَّاهُ الْإِنْسَانُ؛ مَزْرَعَةٌ مُثْمِرَةٌ، وَمَالٌ، وَأَصْدِقَاءٌ. لَكِنِّي لَمْ أَكُنْ هَانِنًا؛ فَفِي عَمِيقِ قَلْبِي، أَدْرَكْتُ أَنَّ الْمَشَاعِرَ سَنَنْتَصِرُ عَلَى الْمُنْطِقِ، فَنَزَعْتِي الْحَمَقَاءَ لِلْإِثَارَةِ غَالِبًا مَا تَكُونُ لَهَا الْغَلْبَةُ.

فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ، تَحَدَّثْتُ عَن مَغَامِرَاتِي فِي الْبَحْرِ لِأَيِّ شَخْصٍ يُمَكِّنُهُ أَنْ يَسْتَمِعَ، وَمَعَ كُلِّ مَرَّةٍ أُرَوِّي فِيهَا الْحِكَايَاتِ، تَكْبُرُ الْقِصَصُ. وَاسْتَحْوَذَ الْإِهْتِمَامُ الشَّدِيدُ بِرِحْلَاتِي عَلَى

مَجْمُوعَةٍ مِنْ أَصْحَابِ الْمَزَارِعِ الْآخَرِينَ، فَحَمَسَتْهُمْ الْفُرْصَةُ فِي أَنْ يُصْبِحُوا أَكْثَرَ ثَرَاءً.
وَعَاجِلًا، وَضَعْنَا الْخُطَطَ لِتَجْهِيزِ سَفِينَةٍ لِرِحْلَةٍ بَحْرِيَّةٍ إِلَى أَفْرِيْقِيَا.
عَرَفْتُ بِقَلْبِي أَنَّ هَذَا الْقَرَارَ أَحْمَقُ، لَكِنَّهُ مَا إِنَّ دَخَلَ حَيْزَ التَّنْفِيذِ كَجَرِّ بَدَأٍ فِي
التَّدْحُرْجِ لِأَسْفَلِ تَلٍّ، لَمْ يَكُنْ بِيَدِي حِيلَةٌ لِإِقْفَافِهِ. فَلَمْ أَكُنْ فِي حَاجَةٍ لِأَنْ أَزِيدَ تَرَوْتِي، وَلَمْ
أَكُنْ فِي حَاجَةٍ لِأَعْيِرِ حَيَاتِي، وَلَمْ أَكُنْ فِي حَاجَةٍ إِلَى أَيِّ مُغَامَرَةٍ، بَلْ كُنْتُ أَنَا مَنْ دَمَرَ نَفْسِي.
وَلَمْ أَسْتَطِعْ مُقَاوَمَةَ الْعَرَضِ، مِثْلَمَا رَفَضْتُ الْإِصْغَاءَ لِوَالِدِي مُنْذُ عِدَّةِ سَنَوَاتٍ.
تَحَدَّدَتْ تَوَارِيخُ الرِّحْلَةِ الْبَحْرِيَّةِ، وَبَعْدَهَا بَوَقْتٍ وَجِيزٍ كَانَتْ السَّفِينَةُ جَاهِزَةً
لِلْإِنْطِلَاقِ. وَوَضَعْنَا خُطَطَ التِّجَارَةِ الرَّسْمِيَّةِ وَكَتَبْتُ وَصِيَّةً، وَتَرَكْتُ وَيْلَ مَسْئُولًا عَنِ
كُلِّ شَيْءٍ، وَاثِقًا أَنَّهُ سَيَعْنَتِي بِمَزْرَعَتِي أَنْثَاءَ غِيَابِي.

الفصل العاشر

أَفْرِيقِيَا مِنْ جَدِيدٍ

صَعَدْتُ إِلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ فِي الْأَوَّلِ مِنْ سِبْتَمْبَرِ ١٦٥٩، بَعْدَ ثَمَانِي سَنَوَاتٍ بِالضَّبْطِ مِنْ
الْيَوْمِ الَّذِي قُمْتُ فِيهِ بِرِحْلَتِي الْأُولَى الْمَشْتُومَةِ مِنْ هَالٍ، لَكِنِّي حَاوَلْتُ أَلَّا أَفَكَّرَ بِهِذَا، فَلَمْ
أُرِدْ أَنْ أُنْحَسَ رِحْلَتِي.

حَمَلَتِ السَّفِينَةُ ١٢٠ طُنًّا مِنَ الْمُونِ، وَأَرْبَعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، إِضَافَةً إِلَى الْقُبْطَانِ،
وَحَادِمِهِ، وَأَنَا. وَلَمْ تَكُنْ حَمُولَتَنَا كَبِيرَةً عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ، فَقَطُّ مَا أَرَدْنَا مُقَايَصَتَهُ مَعَ
الْأَفَارِقَةِ.

عِنْدَمَا بَدَأْنَا الرَّحْلَةَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، كَانَ الطَّقْسُ رَائِعًا، فَأَشْرَقَتِ الشَّمْسُ بِسُطُوعٍ،
وَهَبَّتِ الرِّيَّاحُ فِي الْإِتِّجَاهِ الْمَوَاتِي بِالضَّبْطِ. وَسَلَكْنَا طَرِيقَنَا شَمَالًا، قَاصِدِينَ الْإِبْحَارَ إِلَى
أَفْرِيقِيَا، حَيْثُ وَصَلْنَا إِلَى دَائِرَةِ عَرْضِ عَشْرِ أَوْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ دَرَجَةً.

صَرَبْتْنَا عَاصِفَةٌ عَاتِيَةٌ بَعْدَ إِبْحَارِنَا بِاثْنَيْ عَشَرَ يَوْمًا، فَكَانَ عَلَيْنَا أَنْ نَتَمَاسَكَ بَيْنَمَا
تَتَقَادَفُ الْعَاصِفَةُ السَّفِينَةَ هُنَا وَهَنَّاكَ. فَقَدْنَا ثَلَاثَةَ رِجَالٍ أَثْنَاءَ هَذَا الْإِعْصَارِ؛ فَمَاتَ أَحَدُهُمْ
مِنَ الْإِلْتِهَابِ الرَّئِيئِيِّ، وَجَرَفَتِ الْمِيَاهُ الْإِثْنَيْنِ الْأَخْرَيْنِ مِنْ عَلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ، وَاسْتَمَرَّتْ
الْعَاصِفَةُ تَعْصِفُ بِنَا لِأَسْبُوعَيْنِ مُتَوَاصِلَيْنِ، وَمَلَأَ الرُّعْبُ قُلُوبَنَا.

بَعْدَ مُرُورِ مَا بَدَأَ لَنَا دَهْرًا، هَدَأَ الطَّقْسُ أَحْيَرًا، لَكِنَّنَا قَدْفْنَا بَعِيدًا عَنْ مَسَارِنَا وَأَرَادَ
الْقُبْطَانُ مَعْرِفَةَ مَكَانِنَا الْحَالِي، فَقَضَيْتُ سَاعَاتٍ فِي حُجْرَةِ الْقُبْطَانِ، أَحَاوِلُ مَعَهُ تَقْرِيرَ
مَاذَا نَفَعَلُ؛ رَاجِعُنَا خَرَاطِنَا، وَرُسُومَنَا الْبَحْرِيَّةَ، وَرُسُومَنَا الْبَيَانِيَّةَ.

قَالَ الْقُبْطَانُ بَعْدَ تَفَكِيرٍ مُنْمَعِنٍ: «رُبَّمَا يَتَحَتَّمُ عَلَيْنَا أَنْ نَذْهَبَ مِنْ حَيْثُ أَتَيْنَا.»

أَجَبْتُهُ: «لَكِنَّا بَعِيدُونَ جِدًّا عَنِ الْمَسَارِ، لَعَلَّ مَنِ الْأَسْلَمَ أَنْ نَتَّجِهَ إِلَى جُزْرِ الْكَارِيبِيِّ، فَعَلَى الْأَقْلَى يُمَكِّنُنَا هُنَاكَ إِعَادَةُ تَهْيِئَةِ السَّفِينَةِ، وَقَدْ نَجَدْنَا اثْنَيْنِ مِنَ الْبَحَّارَةِ يَرْغَبَانِ فِي الْإِنْضِمَامِ لِطَاقِمِنَا.»

نَظَرَ بِعِنَايَةٍ فِي الْوَرَقِ عَلَى مَنْصَدَتِهِ وَقَالَ: «هَذَا صَاحِحٌ، يُمَكِّنُنَا أَنْ نَصِلَ إِلَيْهَا فِي الْأَسَابِيعِ الْقَلِيلَةِ الْقَادِمَةِ. وَأَظُنُّ أَنَّكَ مُحِقٌّ، هَذِهِ هِيَ أَفْضَلُ الْخَطِّ.»

وَأَخْبَرَ الْقُبْطَانُ طَاقِمَ السَّفِينَةِ أَنَّهَا مُتَّجِهُونَ إِلَى الْكَارِيبِيِّ، وَغَيَّرْنَا مَسَارَنَا فِي حِينِهِ. وَكَانَتِ السَّفِينَةُ مُنْضَرَّةً بِشِدَّةٍ، وَيَتَسَرَّبُ الْمَاءُ إِلَيْهَا بِكَثْرَةٍ. وَبِالرُّغْمِ مِنْ هَذِهِ الْمَشْكَلاتِ، فَكُنَّا عَلَى ثِقَةٍ مِنْ إِمْكَانِيَّةِ بُلُوغِنَا بَارِبَادُوسَ فِي غُضُونِ أُسْبُوعَيْنِ تَقْرِيْبًا.

الفصل الحادي عشر

تَحَطُّمُ السَّفِينَةِ!

جَلَالَ يَوْمَيْنِ مِنْ تَغْيِيرِنَا لِلْمَسَارِ، هَبَّتْ عَاصِفَةٌ أُخْرَى، وَقَدَفْتَنَا الرِّيحُ بَعِيدًا — تِجَاهَ أَقْصَى الْغَرْبِ — وَمِنْ جَدِيدٍ، ضَلَلْنَا طَرِيقَنَا تَمَامًا فِي الْبَحْرِ.

اسْتَمَرَّتِ الرِّيحُ تَعْصِفُ بِقُوَّةٍ حَتَّى الْيَوْمِ التَّالِيِ، بَلْ لِلْيَوْمِ الَّذِي يَلِيهِ. وَفِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ، سَمِعْتُ أَحَدَ الرِّجَالِ يَصِيحُ: «مَرَحَى، أَرْضُ!»

وَفِي لَحْظَتِهَا تَقْرِبًا ارْتَطَمْنَا بِمُرْتَفَعِ رَمْلِيٍّ، وَتَأَرَجَحَتِ السَّفِينَةُ بِعُنْفٍ لِلْخَلْفِ وَالْأَمَامِ، وَفَاصَتْ عَلَيْنَا مِيَاهُ الْبَحْرِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّنَا هَالِكُونَ لَا مَحَالَةَ. فَجَرَيْنَا إِلَى الْحُجْرَاتِ لِنَحْتَمِيَ بِهَا، وَكُنَّا فِي مَوْفٍ عَصِيبٍ، فَلَمْ نَكُنْ نَدْرِي أَيْنَ كُنَّا، وَلَا نَدْرِي مَا إِذَا كَانَتِ الْأَرْضُ مَا هُوَلَهُ أَمْ لَا، وَلَا نَدْرِي هَلْ سَنَنْجُو أَمْ لَا.

عَلَقَتِ السَّفِينَةُ، وَبَاتَ مِنَ الْمُؤَكَّدِ تَحَطُّمُهَا إِلَى أَجْزَاءٍ، إِنْ لَمْ تُغَيِّرِ الرِّيحُ اتِّجَاهَهَا فِي الْحَالِ. نَظَرَ بَعْضُنَا إِلَى بَعْضٍ وَهَيَّأْنَا أَنْفُسَنَا لِلْأَسْوَأِ. وَكُنَّا جَمِيعًا مُبَلِّغِينَ بِالْمَاءِ وَنَرْتَجِفُ، وَأَصَابَ الْفُتُورُ أَرْوَاحَنَا مِنْ جَرَاءِ أَحْدَاثِ الْأَسَابِيعِ الْقَلِيلَةِ الْمَاضِيَةِ. ثُمَّ، حَدَثَ التَّغْيِيرُ فِي الرِّيحِ.

قَالَ الْقُبْطَانُ: «لَدَيْنَا فُرْصَةٌ الْآنَ، يَا شَبَابُ! دَعُونَا نُنْزِلِ الْقَارِبَ الصَّغِيرَ إِلَى الْبَحْرِ وَنَجِدْفُ إِلَى الشَّاطِئِ. فَهَذَا هُوَ أَمَلُنَا الْوَحِيدُ!»

وَبَعْدَمَا كَانَ لَدَيْنَا قَارِبَانِ صَغِيرَانِ عَلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ، لَمْ يَنْبَقْ مِنْهُمَا إِلَّا وَاحِدٌ فَقَطْ مُنْذُ الْإِعْصَارِ الْأَوَّلِ. وَتَطَلَّبَ الْأَمْرُ بَدَلَ مَجْهُودَاتِ شَاقَّةٍ كَي نَسْتَطِيعَ فَقَطْ إِنْزَالَ الْقَارِبِ

بِسَلَامَةٍ إِلَى الْبَحْرِ وَجَمِيعِ الرِّجَالِ إِلَى سَطْحِهِ. وَتَلَطَمَتِ الْأَمْوَاجُ حَوْلَنَا بَيْنَمَا كُنَّا نَجِدُّفُ
بِاسْتِمَاتَةٍ إِلَى الشَّاطِئِ. وَكُنَّا تَحْتَ رَحْمَةِ الْقَدْرِ، فَدَعَا الْكَثِيرُ مِنَ الرِّجَالِ حَتَّى نَنْجُو.

كَانَ الشُّغْلُ الشَّاعِلُ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنَّا هُوَ الْوُصُولُ إِلَى الشَّاطِئِ، سَوَاءً أَكَانَ صَخْرِيًّا أَمْ
غَيْرَ ذَلِكَ، أَمِنَّا أَمْ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَمْ نَبَالِ. فَجَدَفْنَا بِجُهْدٍ شَدِيدٍ لِأَنَّ حَيَاتِنَا تَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ. وَكَانَتْ
فُرْصَتُنَا الْوَحِيدَةُ هِيَ أَنْ نَجِدَ خَلِيجًا أَوْ فَمَّ نَهْرٍ؛ فَبَدُونِ هَذَا سَنَنْجِرُفُ إِلَى الْعَاصِفَةِ
وَنَضِيعُ فِي الْبَحْرِ. كُنَّا نُرِيدُ الْعُتُورَ عَلَى مَاءٍ هَادِيٍّ لِنَتَمَكَّنَ مِنَ الْوُصُولِ لِشَاطِئِ السَّلَامَةِ.
جَدَفْنَا لِمَا يُقَارِبُ الْفَرَسُخَ وَنِصْفَ الْفَرَسُخِ قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَ مَوْجَةٌ عَالِيَةٌ عَلُوَّ الْجَبَلِ
بِاتِّجَاهِنَا، وَضَرَبَتِ الْقَارِبَ سَرِيعًا، فَجَدَفْنَا جَمِيعًا مِنْ عَلَى الْقَارِبِ، وَابْتَلَعَتْنَا الْمِيَاهُ بِالْكَامِلِ
فِي لِحْظَةٍ.

كَانَ الْأَمْرُ مُرْعَبًا؛ إِذْ كَانَتِ الْأَمْوَاجُ قَوِيَّةً، وَمَعَ أَنِّي سَبَّاحٌ مَاهِرٌ، إِلَّا أَنْ ذِرَاعِي لَمْ
تَكُونَا بِالْقُوَّةِ الَّتِي تَضَاهِي قُوَّةَ الْمِيَاهِ، بَلْ إِنِّي لَمْ أُسْتَطِعِ الصُّعُودَ لِسَطْحِ الْمَاءِ لِأَلْتَقِطَ
أَنْفَاسِي. وَحَمَلْتَنِي الْمِيَاهُ لِلْأَمَامِ بِاتِّجَاهِ الشَّاطِئِ، وَامْتَلَأَتْ رِثَّتَايَ بِالْمَاءِ، فَبَدَأْتُ أَسْعَلُ،
لِكِنِّي كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّنِي إِنْ لَمْ أَرْحَفْ لِلْأَمَامِ، فَلَنْ يَكُونَ لَدَيَّ أَمَلٌ فِي النِّجَاةِ.

وَقَبْلَ أَنْ أَتَمَكَّنَ مِنَ الْوُقُوفِ، جَذَبَنِي الْمَوْجُ بَيْنَ بَرَاثِنِهِ وَالْقَى بِي ثَانِيَةً إِلَى الْبَحْرِ.
وَكَانَتِ الْمِيَاهُ تَدُورُ مِنْ حَوْلِي فِي دَوَامَةٍ بَيْنَمَا كُنْتُ أَصَارِعُ كَيْ لَا أُغْرَقَ. وَفِي لِحْظَتِهَا
تَقْرِيبًا، شَعَرْتُ بِقَدَمِي تَلْمَسُ الْقَاعَ، فَوَقَفْتُ مِنْ فُورِي، وَأَخَذْتُ أُدْخِلُ أَكْبَرَ قَدْرٍ مِنَ الْهَوَاءِ
إِلَى رِثَّتِي قَدْرَ اسْتِطَاعَتِي قَبْلَ أَنْ يُدْخِلَنِي الْبَحْرُ وَيَجْرِبَنِي ثَانِيَةً إِلَى الْأَسْفَلِ.

وَفِي ثَالِثٍ أَوْ رَابِعٍ مَرَّةٍ يَجْرِبَنِي فِيهَا الْبَحْرُ لِلْأَسْفَلِ، اصْطَدَمَ صَدْرِي بِصَخْرَةٍ وَتَوَقَّفَ
تَنْفَسِي بِالْكَامِلِ.

وَوَكَّرْتُ: «هَذِهِ هِيَ النِّهَائِيَّةُ، سَأَمُوتُ هُنَا، سَأَمُوتُ الْأَنْ.»

وَمَعَ كُلِّ حَظِي الْعَاثِرِ، يَبْدُو أَنَّهُ كَانَ لَدَيَّ مَوْهَبَةٌ حَقِيقِيَّةٌ بِالْفِعْلِ؛ مَوْهَبَةٌ النِّجَاةِ.
فَفِي الْمَرَّةِ التَّالِيَةِ الَّتِي دَفَعَنِي التِّيَّارُ فِيهَا لِلْأَمَامِ بِاتِّجَاهِ الشَّاطِئِ، اسْتَجْمَعْتُ كُلَّ قُوَّايَ،
وَلَمَسْتُ قَدَمَايَ الْقَاعَ، وَدَفَعْتُ بِنَفْسِي لِلنُّهُوضِ خَارِجَ الْمِيَاهِ وَجَرَيْتُ بَعِيدًا عَلَى الشَّاطِئِ
قَدْرَ اسْتِطَاعَتِي. فَجَرَيْتُ بِكُلِّ مَا بَقِيَ فِيَّ مِنْ قُوَّةٍ، ثُمَّ نَزَلْتُ عَلَى رُكْبَتَيْي، وَجَعَلْتَنِي كُلُّ

تَحَطُّمُ السَّفِينَةِ!

الْمِيَاهِ الْمَالِحَةِ فِي مَعِدَّتِي أُصَابُ بِالْغَثَيَانِ لِذَقِيقَةٍ، لَكِنِّي نَجَوْتُ. وَكَفَّانِي ذَلِكَ؛ فَمَا زِلْتُ حَيًّا.

الفصل الثاني عشر

جَزِيرَةُ الْيَاسِ

مَا إِنْ أَصْبَحْتُ قَادِرًا عَلَى الْوُقُوفِ، حَتَّى نَظَرْتُ حَوْلِي. أَيْنَ جَمِيعُ رِفَاقِي؟ هَلْ فُقِدُوا جَمِيعًا؟ هَلْ كُنْتُ أَنَا النَّاجِي الْوَحِيدُ؟ وَسَرِيعًا جِدًّا، تَكَشَّفَتْ حَقِيقَةٌ مَوْقِفِي؛ فَكُلُّ مَا وَجَدْتُهُ مِنْهُمْ قَلَنْسُوءٌ وَاحِدَةٌ، وَثَلَاثُ قُبَّعَاتٍ، وَحِذَاءَانِ.

صَرَخْتُ مُلْتَاعًا: «لَا! قُلْ إِنْ الْوَضْعَ لَيْسَ كَمَا أَرَى! لَا يُمَكِّنُ أَنْ أَكُونَ أَنَا النَّاجِي الْوَحِيدًا!»

بَقِيَ لِي شَيْءٌ مِنَ الْأَمَلِ وَقَتْنِيذٍ، فَلَمْ أَكُنْ أَدْرِي شَيْئًا عَنْ مَوْقِعِي، وَلَمْ يَكُنْ لَدَيَّ مَلَابِسٌ جَافَةٌ، وَلَا مِيَاهُ شُرْبٍ وَلَا شَيْءٌ لِاسْتِخْدِمَهُ فِي صَيْدِ طَعَامِي. فَمَعَ أَنِّي لَمْ أَغْرُقْ مِثْلَ بَاقِي رِفَاقِي مِنَ الْبَحَارَةِ الْمَسَاكِينِ، إِلَّا أَنْ أَمَلِي فِي النَّجَاةِ كَانَ وَاهِيًا. فَالشيءُ الْوَحِيدُ الْمَوْجُودُ بِجَنِّبِي هُوَ سَكِّينٌ صَغِيرَةٌ، فَأَيُّ فَائِدَةٍ تُرْجَى مِنْ سَكِّينٍ وَاحِدَةٍ فِي مَكَانٍ غَرِيبٍ بِلَا مَأْوَى وَلَا طَعَامٍ؟

صَرَخْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي. وَكَانَ حَالِي مَيْئُوسًا مِنْهُ؛ فَالليلُ يَهْبِطُ، وَكُنْتُ أَحْتَاجُ أَنْ أَجِدَ مَأْوَى، وَكَانَ يُوجَدُ عَدَدٌ مِنَ الْأَشْجَارِ بَعْدَ مِنْطَقَةِ الشَّاطِئِ مُبَاشَرَةً. وَلَمْ أُسْتَغْرَقْ وَقْتًا طَوِيلًا كَيْ أَجِدَ شَجَرَةً تَبْدُو كَمَكَانٍ جَيِّدٍ لِلِاخْتِبَاءِ خِلَالَ اللَّيْلِ، فَتَسَلَّقْتُهَا وَوَجَدْتُ غُصْنًا مُرِيحًا. وَلَا بُدَّ أَنْ الْمَوْقِفَ الْمُرِيعَ أَرْهَقَنِي بِلَا شَكٍّ، فَتَمَكَّنْتُ مِنَ الْحُصُولِ عَلَى قِسْطٍ ضَمِيلٍ مِنَ التَّوْمِ.

أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ بِسُطُوعٍ فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي، وَكَانَ الْبَحْرُ هَادِئًا، وَتَوَقَّفَتِ الْعَاصِفَةُ.
وَمَعَ أَنَّ الطَّقْسَ تَغَيَّرَ وَأَصْبَحَ مَاتِعًا، إِلَّا أَنَّ مَعْنَوِيَّاتِي وَحَالِي لَمْ يَتَحَسَّنَا كَثِيرًا. نَزَلْتُ مِنْ
مَكَانِي الْعَالِي عَلَى الشَّجَرَةِ، وَعَدْتُ إِلَى الشَّاطِئِ.

وَصَحْتُ مُتَعَجِّبًا: «أِهْ يَا إِلَهِي!» فَالَسَّفِينَةُ كَانَتْ عَالِقَةً فِي بَعْضِ الصُّخُورِ عَلَى بُعْدِ
فَرَسَخٍ تَقْرِيبًا مِنَ الْمَكَانِ حَيْثُ جَرَفْتَنِي الْمِيَاهُ، وَلَمْ تَكُنْ مُحَطَّمَةً! فَلَوْ بَقِينَا فَقَطْ عَلَى
سَطْحِهَا، لَنَجَوْنَا كُلَّنَا، لَكِنِّي لَمْ أَسْتَطِعِ التَّفَكِيرَ فِي هَذَا الْأَن.

بَلْ جَالَ فِي خَاطِرِي: «الآن، هَذَا يَبْعَثُ عَلَى الْأَمَلِ، فَكُلُّ مَا عَلَيَّ فِعْلُهُ هُوَ التَّفَكِيرُ فِي
كَيْفِيَّةِ الْوُصُولِ لِلْمُؤْنِ. وَيَبْدُو أَنَّ فُرْصَتِي فِي النِّجَاةِ لَمْ تَضَعْ بَعْدُ.»

انْتَضَرْتُ تَرَاجُعَ الْمَدِّ، فَكَانَتْ الْمِيَاهُ شَبَهَ ضَحَلَةٍ بِمَا يَتِيحُ لِي السَّيْرَ إِلَى السَّفِينَةِ.
نَزَعْتُ مُعْظَمَ مَلَابِسِي لِكَيْ أُبْقِيهَا جَافَةً، وَكُنْتُ خَائِفًا مِنَ الْمِيَاهِ، لَكِنِّي كُنْتُ فِي حَاجَةٍ
إِلَى الْوُصُولِ لِلسَّفِينَةِ. فَابْتَلَعْتُ مَخَاوِفِي وَبَدَأْتُ السَّيْرَ. وَعِنْدَمَا أَصْبَحَتِ الْمِيَاهُ عَمِيقَةً
وَصَعِبَ الْمَشْيُ فِيهَا، سَبَحْتُ بَاقِي الْمَسَافَةِ. وَكَانَ هُنَاكَ حَبْلٌ يَنْدَلُّ مِنْ جَانِبِ السَّفِينَةِ،
فَاسْتَحْدَمْتُهُ لِلصُّعُودِ إِلَى السَّطْحِ.

أَحَدْتُ وَقْتِي وَنَظَرْتُ فِي أَرْجَاءِ السَّفِينَةِ الَّتِي رَسَتْ تَقْرِيبًا بِكَامِلِهَا عَلَى جَانِبِ وَاحِدٍ.
وَكَانَ الْمَخْرَزُ مُمْتَلِئًا بِالْمِيَاهِ، نِصْفُهُ مُبَلَّلٌ بِالْكَامِلِ، بَيْنَمَا بَقِيَ النِّصْفُ الْأَخْرُ جَافًا تَمَامًا.
وَلِحَسَنِ الْحِظِّ، احْتَوَى النِّصْفُ الْجَافُ عَلَى الْعَدِيدِ مِنَ الْمُؤْنِ. فَنَزَلْتُ إِلَى الْقِسْمِ الَّذِي كَانَ
يُوجَدُ فِيهِ الْخُبْزُ وَأَكَلْتُ بِسُرْعَةٍ بَعْضَ الْبَسْكَوَيْتِ، وَمَا إِنْ تَوَقَّفْتُ مَعْدَتِي عَنِ الْقَرْقَرَةِ،
بَدَأْتُ فِي جَمْعِ أَشْيَاءٍ أُدْرِكْتُ أَنَّي سَاحْتَاجُهَا.

اسْتَحْدَمْتُ كُلَّ الْحَشْبِ وَالْجِبَالِ الرَّائِدِينَ، مِمَّا تَمَكَّنْتُ مِنَ الْعُثُورِ عَلَيْهِ لِإِنْبَاءِ طَوْفِ
صَغِيرٍ كَيْ أَنْقَلَ الْمُؤْنَ مِنَ السَّفِينَةِ عَائِدًا إِلَى الشَّاطِئِ. وَبَعْدَ تَجْرِبَتِهِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ، كَانَ
مُلَابِمًا لِحَمَلِ حَتَّى أَثْقَلَ الْأَشْيَاءِ. وَبِدَائِيهِ، أَنْقَذْتُ الْكَلْبَ الَّذِي كَانَ مَعَنَا عَلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ،
فَكَانَتْ مُعْجِزَةً أَنَّهُ نَجَا مِنَ الْعَاصِفَةِ بِأَيِّ حَالٍ!

أَتَلَفْتُ الْمِيَاهُ الْعَدِيدَ مِنْ مُتَعَلِّقَاتِ الْبَحَّارَةِ الشَّخْصِيَّةِ؛ لِذَا قَرَّرْتُ اسْتِحْدَامَ صِنَادِيْقِهِمْ
كَيْ أَخْزِنَ طَعَامِي وَأَجْمَعَهُ. فَكَانَ لَدَيَّ الْخُبْزُ وَالْأُرْزُ وَالْجُبْنُ وَالْحَمُّ الْمَاعِزِ وَالْقَلِيلُ مِنَ

الْحُبُوبِ الْأُورُوبِيَّةِ. وَأَفْسَدَتِ الْفِئْرَانُ الْقَمَحَ، مِمَّا أَحْبَبْتَنِي وَلَكِنْ لَا يَسْعُنِي فِعْلُ أَيِّ شَيْءٍ حِيَالَ ذَلِكَ الْآنَ.

وَتَبَادَرَ إِلَى ذَهْنِي: «أَتَمَنَّى أَنْ يَظِلَّ الْبَحْرُ هَادِئًا لِمُدَّةٍ تُتِيحُ لِي الْعَوْدَةَ». وَلِذَا، لَا مَزِيدَ مِنَ التَّبَاطُؤِ. وَجَدْتُ أَيْضًا مَلَاسِيسَ، وَصُنْدُوقَ نَجَارٍ وَبَعْضَ الْأَسْلِحَةِ.

وَعَقَدْتُ الْعَزَمَ: «هَذَا يَكْفِي لِلْيَوْمِ، وَحَانَ وَقْتُ الذَّهَابِ». وَبِوَاسِطَةِ مَجْدَافَيْنِ مَكْسُورَيْنِ وَجَدْتُهُمَا عَلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ، جَدَّفْتُ بِنَفْسِي مُتَحَرِّكًا نَحْوَ الشَّاطِئِ، وَلَكِنَّ الصُّخُورَ أَمَامَ الشَّاطِئِ حَيْثُ رَسَوْتُ الْبَارِحَةَ كَانَتْ خَطِرَةً جَدًّا. فَلَكِي أَرْسُو بِالطَّوْفِ فِي سَلَامٍ، كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَجِدَ جَدُولًا صَغِيرًا أَوْ نَهْرًا.

فَكَّرْتُ بِتَعْقُلٍ: «لَا بُدَّ أَنْ آيَا مِنْهُمَا يُوجَدُ بِالْجَوَارِ». لِذَا جَدَّفْتُ بَعِيدًا عَنِ شَاطِئِي. وَكَانَ الْبَحْرُ لَا يِرَالُ هَادِئًا، حَمْدًا لِلَّهِ. وَهَبَّتِ الرِّيَّاحُ فِي صَالِحِي، لَكِنِّي عَرَفْتُ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ يُمَكِّنُهَا أَنْ تَتَغَيَّرَ فِي لِحْظَةٍ. وَتَلَاعَبَ الْبَحْرُ بِالطَّوْفِ مِنَ الْخَلْفِ وَالْأَمَامِ، وَاسْتَعْمَنْتُ بِقَدَمِي لِأَنْشَبْتُ بِقُوَّةٍ بِحُمُولَتِي. نَبَحَ الْكَلْبُ، وَلَمْ يَكُنْ بِوُسْعِي تَحْمُلُ خَسَارَةَ أَيِّ شَيْءٍ؛ لِذَا حَاوَلْتُ أَنْ أَكُونَ فِي شِدَّةِ الْحَرِصِ.

جَدَّفْتُ فِي الْأَرْجَاءِ حَتَّى وَجَدْتُ نَهْرًا، ثُمَّ اسْتَعْرَقْتُ نَحْوَ سَاعَتَيْنِ لِأَجِدَ مَكَانًا مُنَاسِبًا لِإِرْسَاءِ الطَّوْفِ. وَمَا إِنْ سَحَبْتُ كُلَّ أَشْيَائِي إِلَى الشَّاطِئِ، أَمَنْتُ الطَّوْفَ كَيْ أَسْتَعْمِلَهُ فِي الْعَدِ. وَأَمَّا الْخَطْوَةُ الْهَامَّةُ التَّالِيَةُ، فَكَانَتْ إِجَادَ مَكَانٍ آمِنٍ لِتَخْرِيزِ كُلِّ شَيْءٍ.

فَقَزَّ الْكَلْبُ عَنِ الطَّوْفِ تَقْرِيبًا فِي الْحَالِ، وَبَدَأَ يَكْتَشِفُ وَيَشْتَمُ كُلَّ شَيْءٍ يَرَاهُ، وَسَلَّحَتْ نَفْسِي بِمُسَدِّسٍ وَبَعْضِ الْبَارُودِ، وَكَانَ هَدْفِي إِجَادَ مَأْوَى آيَا مَا كَانَ، مَأْوَى أَكْثَرِ رَاحَةٍ مِنَ الشَّجَرَةِ!

لَا حَظَّتْ وَجُودٌ تَلُّ صَغِيرٍ مِنْ عَلَيَّ بَعْدِ، وَكَانَ يَبْعُدُ قُرَابَةَ مِيلٍ، فَقُلْتُ لِنَفْسِي: «رُبَّمَا يُمَكِّنُنِي الرُّؤْيَةُ بِصُورَةٍ أَفْضَلَ مِنَ الْأَعْلَى هُنَاكَ». وَمَعَ الْكَلْبِ فِي رِفْقَتِي، بَدَأْتُ رِحْلَتِي فِي هَذَا الْإِتِّجَاهِ.

قُلْتُ لَهُ: «حَسَنًا، سَتَحْتَاجُ إِلَى اسْمٍ إِذَا كُنَّا سَنَعْدُو صَدِيقَيْنِ، فِيمَاذَا أَدْعُوكَ؟» نَحَّ الْكَلْبُ بِالْإِجَابَةِ، وَضَحِكْتُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ مُنْذُ يَوْمَيْنِ: «عَرَفْتُ. فَسَادْعُوكَ شَيْبِي؛ لِأَنِّي أَنْقَذْتُكَ مِنْ عَلَى السَّفِينَةِ.»

سَرْنَا لِفَتْرَةٍ، ثُمَّ أَصْبَحَ الطَّقْسُ شَدِيدَ الْحَرَارَةِ، وَعِنْدَمَا بَلَغَتْ قَمَّةَ النَّوْلِ، رَأَيْتُ أَنَّي
عَلَى جَزِيرَةٍ، وَلَا يُوجَدُ أَيُّ بَشَرٍ سِوَايَ فِي الْأَرْجَاءِ، عَلَى الْأَقْلِّ لَمْ أَرِ أَيًّا مِنْهُمْ بِأَيِّ حَالٍ.
وَكَانَ يُوجَدُ الْعَدِيدُ مِنَ الطُّيُورِ الْجَمِيلَةِ، لَكِنِّي لَمْ أَعْرِفْ عَلَى أَيِّ نَوْعٍ بَعِيْنِهِ مِنْهَا.
وَبَعْدَ اسْتِكْشَافِ الْجَزِيرَةِ بِسُرْعَةٍ، هَبَطْتُ عَائِدًا إِلَى الطَّوْفِ، وَفَكَكْتُ مُتَعَلِّقَاتِي
وَرَتَّبْتُهَا. وَمَا أَثَارَ دَهْشَتِي، أَنَّ هَذَا اسْتَغْرَقَ مِنِّي بَاقِيَ الْيَوْمِ. أَكَلْتُ الْمَزِيدَ مِنَ الْبَسْكَوِيَّتِ،
ثُمَّ صَنَعْتُ مَا يُشْبِهُ الْكُوْخَ مُسْتَحْدِمًا صِنَادِيْقَ الْبَحَّارَةِ، فَلَمْ أُرِدْ أَنْ يَلْتَهْمَنِي أَيُّ مِنَ
الْحَيَوَانَاتِ فِي الْمَسَاءِ!

الفصل الثالث عشر

مَلَاذُ مَوْقَتٍ

رَجَعْتُ فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ مُبَاشَرَةً إِلَى السَّفِينَةِ لِأَرَى مَاذَا أَيْضًا يُمَكِّنُنِي الْإِحْتِفَاطُ بِهِ. وَكَانَ مِنَ الْمُهْمِّ تَجْمِيعُ كُلِّ شَيْءٍ صَغِيرٍ يُمَكِّنُنِي جَمْعُهُ، فَرُبَّمَا تَعَصِفُ عَاصِفَةٌ أُخْرَى فِي أَيِّ دَقِيقَةٍ وَتَجْرِفُ السَّفِينَةَ بَعِيدًا، وَلَا أُرِيدُ إِضَاعَةَ فُرْصَتِي فِي الْإِحْتِفَاطِ بِشَيْءٍ يُمَكِّنُهُ أَنْ يَجْعَلَ حَيَاتِي أَفْضَلَ، بَيْنَمَا لَا زِلْتُ مُحَاصِرًا فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ. وَذَهَبْتُ مُجَدِّدًا عِنْدَمَا كَانَ التِّيَّارُ مُنْخَفِضًا. وَسَحَبْتُ الطُّوفَ خَلْفِي بَيْنَمَا كُنْتُ أَسْبَحُ بَعِيدًا إِلَى السَّفِينَةِ، ثُمَّ رَبَطْتُهُ بِنَفْسِ الْحَبْلِ الَّذِي اسْتَخْدَمْتُهُ لِلصُّعُودِ.

وَفِي هَذِهِ الْمَرَّةِ، قَرَّرْتُ الْإِسْتِعَانَةَ بِطُوفٍ ثَانٍ؛ لِذَا صَنَعْتُ طُوفًا آخَرَ مُسْتَعِينًا بِالْأَوَّلِ كَنَمُودَجٍ. وَجَمَعْتُ الْعَدِيدَ مِنَ الْأَشْيَاءِ عَلَى هَذَيْنِ الطُّوفَيْنِ! فَأَخَذْتُ مَسَامِيرَ وَالْمَزِيدَ مِنَ الْبِنَادِقِ وَبَعْضَ الْمَلَابِسِ وَالْمَزِيدَ مِنَ الطَّعَامِ وَجَمِيعَ مُسْتَلْزَمَاتِ الْبِنَاءِ الَّتِي أُمَكِّنُنِي الْعُثُورَ عَلَيْهَا، بَلْ أَخَذْتُ أَيْضًا الشُّرَاعَ الْإِحْتِيَاطِيَّ. وَعِنْدَمَا أَمْتَلَأُ الطُّوفَانَ جَدَّفْتُ عَائِدًا تَجَاهَ النَّهْرِ وَصُولاَ إِلَى مَكَانِ اخْتِبَائِي.

وَعِنْدَمَا عُدْتُ، وَجَدْتُ قِطْعَةً بَرِيَّةً جَالِسَةً عَلَى أَحَدِ صِنَادِيقِي!
فَصَحْتُ: «ابْتَعِدِي! انْهَبِي! انْزُكِي صُنْدُوقِي وَشَانَهُ!» لَكِنَّ الْقِطْعَةَ لَمْ تَتَرَحَّرْجْ، وَفَقَطْ نَظَرَتْ إِلَيَّ بِعَيْنَيْهَا الْوَاسِعَتَيْنِ الْجَمِيلَتَيْنِ كَأَنَّهَا تَقُولُ: «عَلَيْكَ أَنْ تُحَاوَلَ بِأَفْضَلِ مَنْ ذَلِكَ يَا سَيِّدًا!»

قَذَفْتُ بِقِطْعَةٍ بَسْكَوِيَّةٍ بِاتِّجَاهِ الْغَابَاتِ، وَنَجَحَتِ الْحَيْلَةُ! فَرَكَضَتِ الْقِطْعَةُ خَلْفَهَا
وَأَكَلَتْهَا فِي قَضْمَةٍ وَاحِدَةٍ سَرِيعَةٍ. وَمِنْ مَظْهَرِ الْأَشْيَاءِ، أَدْرَكْتُ أَنَّ الْقِطْعَةَ لَمْ تَتَلَفْ شَيْئًا،
بَلْ فِي الْحَقِيقَةِ، لَمْ يَأْتِ أَيُّ حَيْوَانٍ آخَرَ إِلَى هُنَاكَ، وَكَانَ هَذَا مُؤَشِّرًا طَيِّبًا.

كَانَتْ خُطُوتِي التَّالِيَةَ هِيَ بِنَاءَ حَيْمَةٍ مُنَاسِبَةٍ؛ لِذَا قَطَعْتُ أَوَّلًا بَعْضَ الْأَعْصَانِ مِنْ
الشَّجَرِ الْمُحِيطِ بِمُحَيِّمِي الْجَدِيدِ، ثُمَّ اسْتَخْدَمْتُ الشَّرَاحَ الْإِحْتِيَاطِيَّ مَعَ بَعْضِ الْجِبَالِ
الَّتِي وَجَدْتُهَا عَلَى السَّفِينَةِ. وَبِمَجَرِّدِ الْإِنْتِهَاءِ مِنَ الْحَيْمَةِ، أَحْضَرْتُ لِلدَّاخِلِ كُلَّ شَيْءٍ يُمَكِّنُ
أَنْ يَفْسُدَ إِذَا أَصْبَحَ الْمَكَانُ شَدِيدَ الرُّطُوبَةِ مِنَ الْمَطَرِ أَوْ شَدِيدَ الْحَرَارَةِ مِنَ الشَّمْسِ.
وَأَخِيرًا، صَنَعْتُ مَضْجَعًا أَكْثَرَ رَاحَةً بِالِاسْتِعَانَةِ بِأَرْجُوحَتَيْنِ شَبَكِيَّتَيْنِ تَسْتَلِي لِأَحْدَهُمَا
مِنَ السَّفِينَةِ. وَأَسْلَمَنِي الْعَمَلُ الْمُضْنِي وَالْمَكَانُ الْمُرِيحُ إِلَى النَّوْمِ عَلَى الْفُورِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ.

وَعَلَى مَدَى الْأُسْبُوعَيْنِ التَّالِيَيْنِ، اسْتَمَرَرْتُ عَلَى نَفْسِ مَنَوَالٍ أَوَّلِ يَوْمَيْنِ، فَفِي الصَّبَاحِ،
وَبَعْدَمَا يَهْدَأُ التِّيَّارُ، أَسْبَحُ إِلَى السَّفِينَةِ سَاحِبًا خَلْفِي طُوفِي، وَأَبْحَثُ مِنْ مُقَدِّمَةِ السَّفِينَةِ
حَتَّى مُوْخَرَتِهَا عَنْ أَيِّ شَيْءٍ رُبَّمَا يَكُونُ مُفِيدًا. وَبَعْدَ قَضَاءِ نَحْوِ السَّاعَتَيْنِ فِي تَجْمِيعِ
الْمُؤْنِ، أُجَدِّفُ عَائِدًا بِالطُّوفَيْنِ لِلشَّاطِئِ. وَعَلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ وَجَدْتُ بَعْضَ الْأَشْيَاءِ الْأَكْثَرَ
إِثَارَةً، وَمِنْهَا مَقْصٌ (وَكَانَ عَظِيمَ الْفَائِدَةِ فِي الْحَقِيقَةِ!) وَشَفْرَةٌ جِلَاقَةٌ، حَتَّى يُمَكِّنَنِي
الْجِلَاقَةُ، كَمَا وَجَدْتُ صُنْدُوقًا بِهِ مِنَ الذَّهَبِ مَا تَزِيدُ قِيمَتُهُ عَنْ ثَلَاثِينَ جُنَيْهًا، وَلَمْ أَرَ لَهُ
أَيَّ نَفْعٍ، إِلَّا أَنْنِي أَخَذْتُهُ مَعِي عَلَى أَيِّ حَالٍ، بِالرُّغْمِ مِنْ عَدَمِ وُجُودِ مَكَانٍ أَنْفَعَهُ فِيهِ!

وَفِي الْيَوْمِ الْأَخِيرِ مِنَ الْأُسْبُوعَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ انْقَلَبَ الطَّقْسُ فِي النِّهَائَةِ، وَكَانَتْ بِالْفِعْلِ آخِرَ
رِحْلَةٍ لِي إِلَى السَّفِينَةِ، فَلَدَيَّْ تَقْرِيبًا كُلُّ شَيْءٍ يُمَكِّنَنِي اسْتِحْدَامَهُ، بَلْ وَأَكْثَرَ. هَدَبَتِ الرِّيَّاحُ
سَرِيعًا، وَكَانَتِ الْبِضَائِعُ تَقِيلُهُ بَيْنَمَا كُنْتُ أُجَدِّفُ جَاهِدًا لِلْعُودَةِ إِلَى الشَّاطِئِ، وَعَرَفْتُ
حِينَهَا أَنَّ لَدَيَّ فُرْصَةً وَاحِدَةً فَقَطْ لِلْعُودَةِ قَبْلَ الْعَاصِفَةِ؛ لِذَا وَلِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ عَلَى مَدَى
عِدَّةِ أَسَابِيعَ، كُنْتُ أُجَدِّفُ لِلنَّجَاةِ بِحَيَاتِي. فَاصْتُ مِيَاهَ الْأَمْوَاجِ الْمُتَلَاطِمَةِ فَوْقَ الطُّوفَيْنِ،
وَلَمْ يَكُنْ لَدَيَّ الْوَقْتُ حَتَّى لِلتَّفَكِيرِ فِي مَاذَا يُمَكِّنُ أَنْ يَحْدُثَ؛ فَجَدَفْتُ وَجَدَفْتُ، وَكَانَ عَلَيَّ
الْعُودَةُ.

لَمْ تَذْهَبْ مَجْهُودَاتِي سُدَى، وَعَمَّا قَلِيلٍ أَصْبَحْتُ مُرْتَاحًا فِي حَيْمَتِي، أَسْتَمِعُ إِلَى صَوْتِ
الْمَطَرِ يَهْطِلُ مِنْ حَوْلِي. صَرَبَتِ الرِّيَّاحُ شَرَاحَ الْحَيْمَةِ بِقُوَّةٍ، وَكَانَ بِإِمْكَانِي سَمَاعُ تَأَرْجُحِ

الأشجار، وحفيف أوراقها. ولا بدَّ أنَّ العاصفة استمرت طوال الليل، لكنني لم أسمعها،
فقد نمت قريراً العين في حيمتي التي اصطعتها بيدي. واستيقظت في صباح اليوم التالي
وجريت نحو الشاطئ لأجد أن السفينة اختفت تماماً!
فتبادر إلى ذهني: «حسناً، من المؤكد أن الحظ ظل يرافقني لمدة طويلة بما يكفي.»
وقفت هناك لدقيقة أنظر إلى المكان الخاوي وأفكر في السفينة والطاقم وقبطاننا. وفكرت
كذلك كم كانت حياتي مختلفة من أسبوعين فقط.

الفصل الرابع عشر

الشَّهْرُ الْأَوَّلُ

الآنَ، وَقَدْ انْتَهَيْتُ مِنْ رِحْلَاتِي اليَوْمِيَّةِ مِنْ وَإِلَى السَّفِينَةِ، كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَبْنِيَ مَأْوَى أَكْثَرَ دَوَامًا. وَكَانَ أَهْمُ شَيْءٍ فِي حَيَاتِي وَقَتْنِدٍ هُوَ ضَمَانُ أَمْنِي وَسَلَامَتِي مِنْ أَيِّ حَيَوَانٍ بَرِّيٍّ أَوْ أَهْلِ الْمِنْطَقَةِ.

فَتَسَاءَلْتُ: «هَلْ سَيَكُونُ مِنَ الْأَفْضَلِ بِنَاءُ حَيْمَةٍ أَكْثَرَ دَوَامًا؟ أَمْ أَنَّهُ مِنَ الْأَذْكَى الْعُثُورُ عَلَى كَهْفٍ أَعِيشُ فِيهِ؟» جَلَسْتُ عَلَى الشَّاطِئِ وَفَكَّرْتُ مَلِيًّا فِي كِلَا الْخِيَارَيْنِ وَقُلْتُ لِنَفْسِي: «أَظُنُّ أَنَّي أَحْتَاجُ كِلَيْهِمَا: كَهْفًا لِلتَّخْزِينِ وَحَيْمَةً أَفْضَلَ.»

اتَّسَمَ الشَّاطِئُ حَيْثُ أَقَمْتُ الْمُحَيِّمَ بِالْحَرَارَةِ الشَّدِيدَةِ وَعَدَمِ قُرْبِهِ مِنْ مِيَاهِ الشُّرْبِ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُهْمِّ أَيْضًا أَنْ أَتَمَكَّنَ مِنْ رُؤْيَةِ الْبَحْرِ، كَيْ أَتَرَقَّبَ مُرُورَ السُّفُنِ. سِرْتُ أَنَا وَشِيبِي طَوِيلًا حَوْلَ الْجَزِيرَةِ، وَبَعْدَ قُرَابَةِ ثَلَاثِ سَاعَاتٍ، وَجَدْنَا سَهْلًا جَمِيلًا، أَرْضِيَّتُهُ عُشْبِيَّةٌ، عَلَى جَانِبِ تَلٍّ صَاعِدٍ، بَدَأَ لِي مِثَالِيًّا! وَاسْتَغْرَقَ نَقْلُ جَمِيعِ مُؤْنِي لِمُحَيِّمِي الْجَدِيدِ عِدَّةَ أَيَّامٍ. وَلَمْ أَكُنْ أُرِيدُ الْبَقَاءَ هُنَاكَ حَتَّى أَنْتَهِيَ تَمَامًا مِنْ نَقْلِ كُلِّ شَيْءٍ، فَتَرَكْتُ شِيبِي هُنَاكَ فِي مُعْظَمِ اللَّيَالِي لِيَحْرُسَ أَشْيَائِي إِلَى أَنْ انْتَهَيْتُ مِنْ نَقْلِ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْمُحَيِّمِ الْأَوَّلِ.

أَوَّلًا، بَنَيْتُ حِصْنًا حَوْلَ الْمِنْطَقَةِ الَّتِي خَطَطْتُ لِإِقَامَةِ حَيْمَتِي بِهَا، فَأَخَذْتُ أَشْجَارًا صَغِيرَةً مِنَ الْغَابَةِ وَزَرَعْتُهَا حَوْلَ كَهْفِ صَغِيرٍ وَجَدْتُهُ، ثُمَّ بَنَيْتُ جُدْرَانًا دَاخِلَ خَطِّ الْأَشْجَارِ مُبَاشَرَةً. وَبَدَلًا مِنْ بِنَاءِ بَابٍ لِلْمُرُورِ عَبْرَ جِدَارِي، صَنَعْتُ سُلَّمًا؛ فَلَا يُمْكِنُكَ التَّخَلِّي عَنِ الْحَدَرِ، أَوْ عَلَى الْأَقْلُ هَكَذَا شَعَرْتُ. وَلَكِنَّ شِيبِي كَانَ فِي حَاجَةٍ لِلدُّخُولِ

وَالْخُرُوجُ هُوَ الْآخَرُ؛ لِذَا صَنَعْتُ لَهُ فَجْوَةً فِي الْجِدَارِ لِيَأْتِي وَيَذْهَبَ كَيْفَمَا يُحِبُّ، وَأَخْفَيْتُهَا بِسَعْفِ النَّخِيلِ كَيْ لَا يَلْحِظُهَا أَحَدٌ. وَعِنْدَمَا انْتَهَيْتُ وَجَدْتُ فِي حِصْنِي حِمَايَةَ كَبِيرَةً وَرَاحَةً بَالٍ.

بَعْدَ ذَلِكَ، صَنَعْتُ هَيْكَلًا أَكْثَرَ مَتَانَةً لِرَفْعِ قِمَّةِ الْحَيْمَةِ. وَبَنَيْتُ بَيْتِي الْجَدِيدَ قَرِبَ الْكُهْفِ، وَكُنْتُ أَسْتَحْدِمُهُ لِتَخْزِينِ الطَّعَامِ؛ وَبِذَلِكَ كُنْتُ مَشْغُولًا طَوَالَ الْأَيَّامِ. وَبِمُرُورِ كُلِّ يَوْمٍ، أَزْدَدْتُ أَمَلًا فِي النِّجَاةِ. وَفِي النِّهَايَةِ أَصْبَحْتُ جَمِيعَ مُؤْنِي مُرْتَبَةً وَمُنْظَمَةً جِدًّا؛ فَفَصَلْتُ الْبَارُودَ فِي مَجْمُوعَاتٍ عَدِيدَةٍ مُخْتَلِفَةٍ (لِأَحْفَظُهُ فِي أَمَانٍ مِنَ الْبَرْقِ!) وَكَذَلِكَ حَزَنْتُ طَعَامِي بِعِنَايَةٍ كَيْ لَا يَفْسُدَ.

فِي هَذِهِ الْأَسَابِيعِ الْقَلِيلَةِ الْأُولَى كُنْتُ أَذْهَبُ مُصْطَحِبًا كُلِّي وَبُنْدُقَيْتِي لِصَيْدِ الطَّعَامِ كُلِّ صَبَاحٍ، فَكَانَ هُنَاكَ الْعَدِيدُ مِنَ الْمَاعِزِ الْبَرِّيِّ عَلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ، وَأَصْبَحَ لَحْمُ الْمَاعِزِ جُزْءًا أَسَاسِيًّا مِنْ غِذَائِي الْمُعْتَادِ. وَعَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ، أَبْلَيْتُ بِلَاءً حَسَنًا؛ فَمَنْ كَانَ يَعْرِفُ أَنَّ بَاسِطَاعَتِي بِنَاءِ حِصْنٍ أَوْ اصْطِيَادِ طَعَامٍ؟ وَمَنْ كَانَ يَعْرِفُ أَنَّ لَدَيَّ الْقُوَّةَ وَالْإِزَادَةَ لِلنِّجَاةِ؟ فَقَدْ كُنْتُ مَحْظُوظًا، إِذْ لَدَيَّ الْغِذَاءُ وَالْمَاءُ وَالْمَأْوَى؛ أَيُّ إِنَّ الْإِحْتِيَاجَاتِ الْأَسَاسِيَّةَ كَانَتْ مُتَاحَةً.

وَمَعَ تَأْمِينِ ضَرُورِيَّاتِ الْحَيَاةِ، بَقِيَ لَدَيَّ الْمَزِيدُ مِنَ الْوَقْتِ لِأَفْكَرَ. وَكَانَ أَقْسَى شَيْءٍ فِي وُجُودِي عَلَى الْجَزِيرَةِ هُوَ قِضَاءُ الْأَوْقَاتِ الطَّوِيلَةِ وَحَدِي، فَسَبَحْتُ بِي أَفْكَارِي صَوَّبَ عَائِلَتِي، وَكَانَ مِنَ الْمُحِبِّبِ التَّفَكُّيرِ فِي أَنَّنِي قَدْ لَا أَرَاهُمْ ثَانِيَةً أَبَدًا. وَتَذَكَّرْتُ رِفَاقِي الْبَحَّارَةَ، الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِثْلُ حَظِّي فَعَرِقُوا، وَقَضَيْتُ الْوَقْتَ جَالِسًا وَبَاكِئًا فَحَسْبُ. وَبِاسْتِخْدَامِ بَعْضِ الْوَرَقِ الصَّغِيرِ وَالْحَبْرِ مِمَّا اسْتَطَعْتُ الْحُصُولَ عَلَيْهِ مِنَ السَّفِينَةِ، بَدَأْتُ فِي تَسْجِيلِ يَوْمِيَّاتِي. وَفِي الْأَيَّامِ الَّتِي اسْتَمَرَّ فِيهَا نَزِيفُ قَلْبِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِرْتُهُ أَوْ تَخَلَّيْتُ عَنْهُ، كَانَتْ الْكِتَابَةُ تَقْدِّمُ لِي يَدَ الْعَوْنِ.

فِي ذَلِكَ الْحِينِ، كَانَ أَكْثُوبَرٌ عَلَى وَشِكِ الْإِنْتِهَاءِ تَقْرِيبًا، وَكُنْتُ قَدْ ابْتَعَدْتُ عَنِ الْبَرَازِيلِ مِنْذُ شَهْرَيْنِ. فَبَعْدَ هُبُوطِي عَلَى الشَّاطِئِ مُبَاشَرَةً، صَنَعْتُ مَا يُشْبِهُ التَّقْوِيمَ عَلَى شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ بِجِوَارِ الشَّاطِئِ، وَحَفَرْتُ كُلَّ يَوْمٍ كَخَطِّ مُسْتَقِيمٍ، ثُمَّ شَطَبْتُ عَلَى الْأَيَّامِ مَرَّةً وَاحِدَةً بَعْدَ انْتِهَاءِ كُلِّ أُسْبُوعٍ. فَقَدْ غَادَرْنَا الْبَرَازِيلَ فِي الْأَوَّلِ مِنْ سِبْتَمْبَرِ، وَأَعْلَمُ أَنَّنا ظَلَمْنَا فِي

الشَّهْرُ الْأَوَّلُ

الْبَحْرُ لِمُدَّةِ ثَلَاثِينَ يَوْمًا قَبْلَ ارْتِطَامِنَا بِهَذَا الْمُرْتَفَعِ الرَّمْلِيِّ، وَدَلَّتِ الشَّجَرَةُ عَلَيَّ أَنَّنِي ظَلَلْتُ
عَلَى الْجَزِيرَةِ لِشَهْرٍ وَاحِدٍ؛ لَذَا قُمْتُ بِعَمَلِ تَقْوِيمِ جَدِيدٍ بِدَايَةِ مَنْ ٣٠ سَبْتَمْبَرٍ، وَهُوَ يَوْمٌ
وُصُولِي إِلَى جَزِيرَتِي، وَسَيُعْتَبَرُ يَوْمَ ذِكْرِي وَوُصُولِي. فَأَصْبَحْتُ أَعْيَ الْيَوْمَ مِنَ الْغَدِ، الْجُمُعَةَ
مِنَ الْأَحَدِ، وَالْإِثْنَيْنِ مِنَ الْأَرْبَعَاءِ، وَكَانَ هَذَا أَيْضًا مِنْ دَوَاعِي رَاحَةِ بَالِي.

الحياة على جزيرة مهجورة

على مدى الأسابيع القليلة التالية، عملت جاهداً لتحسين مخيمي، حيث كان هناك حاجة إلى توسعته لتخزين جميع مؤنّي. وبعد عدة محاولات صنعت منضدة وكُرسيًا؛ مما أذهلني تمامًا وقتها، فلم أكن قطُّ أجيد أعمال النجارة. وعلمني الوقت والمجهود أنني قادرٌ على البناء، أو النحت، أو عمل أيِّ شيءٍ طالما عزمتُ على عمله. وربما كانت الأشياء التي صنعتها تبدو غير مصقولة، لكنها على الأقل كانت صالحة للاستخدام، وكان هذا أهمَّ كثيرًا في رأيي.

اتسمت أيامي الآن بروتين واضح؛ فأنا أخرج في الصباح، حتى زهاء الساعة الحادية عشرة، وكانت هذه الجولات للتمرين، ولكنها كانت كذلك للصيد. ولأحظت وجود بعض الطيور البرية التي يمكنني أكلها، بالإضافة للماعز. وكان من المهم بالنسبة لي الاستفادة من كلِّ جزءٍ من الحيوانات التي أصطادها؛ فاستخدمت جلودها، وأكلت لحومها، ولم أقتل أبدًا على سبيل الرياضة؛ فالبارود كان عزيزًا جدًّا، كما أن ضميري لم يكن ليرضى بهذا على أيِّ حال.

كان الطقس حارًّا، فبعد جولاتي الطويلة في الصباح، عادةً ما كنت أعفو. وما إن تبدأ الشمس في الهبوط، أقوم بإعداد العشاء والبدء في العمل على مشاريعي المختلفة والمتنوعة؛ فصنعت شموعًا، وكتبت مذكراتي، ونحتت أواني للطعام، وفعلت أيِّ شيءٍ ليُمضي الوقت.

وفي إحدى جولاتي، سعدت باكتشافي لشجرة الخشب الحديدي في الغابة.

قُلْتُ لِنَفْسِي: «مِثْلُ هَذَا الْخَشَبِ الْقَوِيِّ يُمَكِّنُنِي اسْتِخْدَامُهُ لِعَمَلِ مِجْرَافٍ، بَلْ حَتَّى لِعَمَلِ مَسْنٍّ لِلْمُسَاعَدَةِ فِي شَحْدِ أَدَوَاتِي.»

وَكَانَ حَسَبًا قَوِيًّا بِحَقِّ! اسْتَعْرَفْتُ سَاعَاتٍ طَوِيلَةً فِي تَقْطِيعِهِ بِفَأْسِي، كَيْ أَقْطَعَ وَلَوْ جُزْءًا صَغِيرًا مِنْ حَسَبِ الشَّجَرَةِ. وَلَكِنَّ الْأَدَوَاتِ الَّتِي صَنَعْتُهَا لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّهْلِ الِاسْتِغْنَاءَ عَنْهَا فِي رَأْيِي، وَأَثْمَرْتُ كُلَّ جُهُودِي الْمُضْنِيَّةِ.

انْقَضَى الْوَقْتُ؛ فِيهِ غَمْضَةٌ عَيْنٍ مَرَّ مَا يَزِيدُ عَنْ ثَلَاثَةِ شُهُورٍ وَأَنَا عَلَى الْجَزِيرَةِ، ثُمَّ حَلَّ الْمَوْسِمُ الْمُمَطَّرُ. وَكَانَ الطَّقْسُ يُعْطِينِي إِشَارَاتٍ بِاحْتِمَالِيَّةِ حُلُولِ مَوْسِمٍ مُمَطَّرٍ؛ لِذَا قَضَيْتُ وَقْتًا طَوِيلًا فِي الشُّهُورِ السَّابِقَةِ لَهُ مُحَاوَلًا بِنَاءِ غِطَاءٍ أَفْضَلَ لِمَا تُسَمَّى «حَيْمَتِي». وَسُرْعَانَ مَا تَحَوَّلَ الْهَيْكَلُ كُلُّهُ لِيَعْدُوَ بِنَاءً مُلَائِمًا، ذَا جُدْرَانٍ، وَبَابٍ، وَسَقْفٍ جَيِّدٍ مَتِينٍ. وَنَحَتُ الْأَلْوَاحَ الْخَشَبِيَّةَ لِلسَّقْفِ ثُمَّ اسْتَخْدَمْتُ سَعْفَ النَّخِيلِ كَمَادَّةٍ عَارِزَةً لِلْمَطَرِ. وَمَعَ هَذَا، فَكَانَ الْمَاءُ لَمْ يَزَلْ يَتَسَرَّبُ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي، وَحِينَهَا كُنْتُ أُؤَثِّرُ النَّوْمَ فِي كَهْفِ التَّخْزِينِ!

وَمِنْ يَنَايِرٍ حَتَّى أْبْرِيْلٍ عَمِلْتُ عَلَى تَحْصِينِ سِيَاجِي، فَكَلَّمَا أَصْبَحَ أَقْوَى اِزْدَادَ شُعُورِي بِالْأَمَانِ. وَأَضْفَتُ عَدَدًا مِنَ التَّحْسِينَاتِ الْأُخْرَى لِمَنْزِلِي هَذَا الْمَوْسِمِ، وَعَمَّا قَرِيبٍ أَضْحَيْتُ مُسْتَرِيحًا أَيْمًا رَاحَةً، فَأَضَاعَتْ لَيْالِي الشُّمُوعُ، وَكَانَ مَنْزِلِي جَافًا (فِي مُعْظَمِهِ)، وَلَدَيْ شَيْبِي لِيَبْقَى بِرِفْقَتِي.

اسْتَيْقَظْتُ ذَاتَ صَبَاحٍ فِي ذَاتِ شَهْرِ أْبْرِيْلٍ مَشْدُوهاً؛ إِذْ وَجَدْتُ أَنَّ بَعْضَ الْأَطْعِمَةِ التَّالِفَةِ الَّتِي أَلْقَيْتُ بِهَا بَعِيدًا أَنْبَتَتْ، فَكَانَتْ هُنَاكَ سِيْقَانُ حَضْرَاءٍ رَائِعَةٍ فِي سَهْلِي. وَفَرِحْتُ بِاِكْتِشَافِي أَنَّهَا شَعِيرٌ وَأُرْزُ، وَكَذَلِكَ كَانَتْ الْمَحَاصِيلُ صَحِيَّةً تَمَامًا! وَتَذَكَّرْتُ إِلقَائِي لِلْحُبُوبِ فِي كَافَةِ أَرْجَاءِ الْمَكَانِ لَكِي أُفْرِعَ الْحَقِيبَةَ، حَيْثُ احْتَجْتُ إِلَيْهَا لِأُخْزَنَ بِهَا بَارُودِي. وَبِالتَّأَكِيدِ الطَّبِيعَةُ مِذْهَلَةٌ! فَمَا كُنْتُ لِأَتَوَقَّعَ أَبَدًا أَنْ يَنْمُو طَعَامُ الدَّجَاجِ فِي مَرْجِي الْأَمَامِيِّ، وَلَكِنِّي فِي غَايَةِ السَّعَادَةِ الْآنَ بَعْدَ وُجُودِهِ.

وَبِالتَّأَكِيدِ، كَانَ شَهْرُ أْبْرِيْلٍ مَلِيئًا بِالْمُفَاجَاتِ، لَكِنَّهَا لَيْسَتْ جَمِيعُهَا سَارَةً. فَذَاتَ يَوْمٍ، بَيْنَمَا كُنْتُ فِي كَهْفِي أُصْنَفُ مُؤْنِي، بَدَأَتْ الْأَرْضُ تَحْتَ قَدَمِي فِي الْإِهْتِرَازِ. وَكَانَ هُنَاكَ صَوْتُ تَصَدُّعِ عَالٍ، وَبَدَأَتْ الْأَحْجَارُ فِي التَّسَاقُطِ مِنْ حَوْلِي، وَكُنْتُ مَرْعُوبًا وَجَرِيْتُ

إِلَى الْخَارِجِ بِسُرْعَةٍ. وَاهْتَزَّتِ الْأَرْضُ مَرَّةً ثَانِيَةً، وَثَالِثَةً. وَمِثْلَمَا بَدَأَ سَرِيعًا، انْتَهَى سَرِيعًا. زَلْزَالٌ! قَرَأْتُ عَنْهُ فِي صَبَائِي، لِكَنَّيَ لَمْ أَشْهَدْ أَيَّ زَلْزَالٍ فِي حَيَاتِي قَطُّ. فَكَرْتُ: «حَسَنًا، أَتَمَنَّى أَلَّا يَحْدُثَ مِثْلُ هَذَا ثَانِيَةً أَبَدًا». وَعُدْتُ إِلَى مَنْزِلِي وَأَزْحْتُ الصُّخُورَ مِنْ كَهْفِ التَّخْزِينِ.

وَبِالرُّغْمِ مِنْ تَرَاجُعِ الْأَمْطَارِ بِحُلُولِ مَائِي، تَبِعَتِ الزَّلْزَالُ عَاصِفَةً عَاتِيَةً. وَفِي الصَّبَاحِ التَّالِي لِانْتِهَائِهَا، سِرْتُ فِي جَوْلَتِي الْمُعْتَادَةِ هَابِطًا نَحْوَ الشَّاطِئِي، وَكَانَ هُنَاكَ شَيْءٌ مَا عَلَى الشَّاطِئِي، وَلَمْ يَبْدُ كَأَعْشَابٍ بَحْرِيَّةٍ أَوْ أَحْشَابٍ طَافِيَّةٍ مِمَّا اعْتَدْتُ رُؤْيَيْتَهُ هُنَاكَ بِالْأَسْفَلِ. فَقُلْتُ بِصَوْتٍ عَالٍ بَيْنَمَا سِرْتُ نَحْوَ هَذَا الشَّيْءِ كَيْ أَرَاهُ عَنْ قُرْبٍ: «مَا هَذَا؟ عَجَبًا، إِنَّهَا السَّفِينَةُ!»

قَضَيْتُ النَّهَارَ فِي تَجْمِيعِ كُلِّ أَجْزَائِهَا وَحَمَلِهَا بَعِيدًا أَعْلَى الشَّاطِئِي. وَأَنْجَرَفَ بِرَمِيلٍ آخَرَ مِنَ الْبَارُودِ إِلَى الشَّاطِئِي أَيْضًا، وَلَكِنَّ الْمِيَاهَ كَانَتْ قَدْ أَفْسَدَتْهُ. وَبَدَلًا مِنَ الْعُودَةِ لِمَنْزِلِي لِأَنِّعَ بِغَفَوْتِي الْمُعْتَادَةِ، قَضَيْتُ بَاقِيَ الْيَوْمِ فِي مُحَاوَلَةِ إِعَادَةِ بِنَاءِ السَّفِينَةِ، لَكِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَمَلٌ. وَمَعَ ذَلِكَ، قَرَّرْتُ الْإِحْتِفَاطَ بِجَمِيعِ أَجْزَائِهَا وَحَسَبُ، فَرُبَّمَا يُمْكِنُ الْإِسْتِفَادَةُ مِنْهَا. وَأَسْتَعْرِقُ مِنْي تَفَكُّيكَ السَّفِينَةِ بِالْكَامِلِ قَرَابَةَ الشَّهْرِ. وَبِحُلُولِ مُنْتَصَفِ يُونِيُو، كَانَتْ مُفَكِّكَةً لِأَجْزَاءِ، وَأَخْفَيْتُ كُلَّ شَيْءٍ بِالْقُرْبِ مِنَ الشَّاطِئِي؛ فَلَا يُمْكِنُكَ التَّخْلِي عَنْ الْحَذَرِ.

عَلَّمْتَنِي الْحَيَاةُ عَلَى الْجَزِيرَةِ عِدَّةَ دُرُوسٍ، وَلَمْ يَكُنْ أَوْلَاهَا مَا حَدَثَ فِي ذَاتِ شَهْرِ يُونِيُو. وَنَظَرًا لِأَنِّي كُنْتُ أَقْضِي وَقْتًا طَوِيلًا فِي الْأَسْفَلِ بِجَوَارِ الْمَاءِ كَيْ أَفُكَّ السَّفِينَةَ، فَكُنْتُ هُنَاكَ حِينَ رَأَيْتُ سُلْحَفَاءً، وَتَحَمَّسْتُ. فَبَعْدَ شَهْوَرٍ مِنْ أَكْلِ الْحَمَامِ وَالْمَاعِزِ، سَتَكُونُ السُّلْحَفَاءُ تَغْيِيرًا مُحِبَّبًا إِلَى النَّفْسِ. وَتَنَاوَلْتُ عَشَاءً شَهِيًّا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ.

وَبَعْدَ مُرُورِ أَيَّامٍ وَأَيَّامٍ، مَرَضْتُ لِدَرَجَةٍ مُمِيتَةٍ. فَكُنْتُ مَحْمُومًا وَأَصَابْتَنِي تَقْلُصَاتٌ رَهِيْبَةٌ فِي مَعْدَتِي، فَتَاهُ عَقْلِي وَأَخَذْتُ أَتَقَلَّبُ فِي فِرَاشِي، وَطَارَدْتُ لِيَالِي الْأَحْلَامِ الْمُرِيعَةِ، فَبَكَيْتُ وَبَكَيتُ، مُشْتَاقًا لِأُمِّي وَأَبِي، وَلَعَنْتُ قَرَارِي لِلذَّهَابِ لِلْبَحْرِ، وَلَعَنْتُ هَجْرِي لِمَزْرَعَتِي. وَلَكِنَّ الْأَهَمَّ أَنِّي لَعَنْتُ الظُّرُوفَ الَّتِي أَلْقَتْ بِي فِي جَزِيرَةِ الْيَأْسِ تِلْكَ.

بَعْدَ ذَلِكَ انْتَهَى الْأَمْرُ، وَتَرَكَنِي الْمَرَضُ شَاعِرًا بِالِاضْطِرَابِ وَالضِّيقِ. لِمَ حَدَثَ لِي كُلُّ
هَذَا؟ وَكَيْفَ سَأَنْجُو مِنْ هَذِهِ الْمِحْنَةِ؟ وَلَكُمْ مِنَ الْوَقْتِ سَابِقِي هُنَا؟ وَهَلْ سَيَأْتِي أَحَدٌ
لِإِنْقَازِي؟ كَانَ جِسْمِي فِي غَايَةِ الْوَهْنِ، وَلَمْ أَسْتَعِدْ قُوَّتِي عَلَى مَدَى الْعَدِيدِ وَالْعَدِيدِ مِنَ
الْأَسَابِعِ.

جَزِيرَةُ الْاِكْتِشَافِ

عِنْدَمَا بَدَأْتُ فِي الشُّعُورِ بِالتَّحْسُنِ قَرَّرْتُ اسْتِكْشَافَ الْجَزِيرَةِ كَمَا يَنْبَغِي، وَأَرَدْتُ التَّعَرُّفَ عَلَى مَا يُحِيطُ بِي، فَرَبَّمَا يُسَاعِدُنِي التَّفَكِيرُ فِي الْجَزِيرَةِ عَلَى أَنَّهَا بَيْتِي وَلَيْسَ مَكَانًا عَلِقْتُ فِيهِ. وَحَلَّ الآنَ مَوْسَمُ الْجَفَافِ، وَعَزَمْتُ عَلَى الذَّهَابِ لِلْجَدُولِ حَيْثُ أَبْحَرْتُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي الطَّوْفِ وَمَعِي مُؤْنِي مِنَ السَّفِينَةِ. وَبِمَجْرَدِ وُصُولِي إِلَى هُنَاكَ، سِرْتُ بِطُولِ الْجَدُولِ حَتَّى تَمَلَّكَنِي التَّعَبُ وَعَدْتُ أَدْرَاجِي. وَكَانَ هُنَاكَ الْعَدِيدُ مِنَ النَّبَاتَاتِ الَّتِي لَمْ أَعْرِفْهَا؛ لِذَا أَخَذْتُ مَعِي عَيْنَاتٍ لِأَعُودَ بِهَا إِلَى الْمُحِيمِ، وَوَجَدْتُ أَيْضًا نَبَاتَاتٍ أَعْرِفُهَا، مِثْلَ الْأَكُوتِ. وَكُنْتُ فُخُورًا جِدًّا بِاِكْتِشَافَاتِي!

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي، سِرْتُ لِمَسَافَةٍ أَبْعَدَ، وَتَحَوَّلَتِ الْأَرْضُ الْخَضْرَاءُ الْمُزْدَهَرَةُ إِلَى غَايَةِ خَشْيَبَةٍ كَثِيفَةٍ. فَكَانَ يُوجَدُ أَشْجَارٌ كَبِيرَةٌ مُثْقَلَةٌ بِالْفَاكِهَةِ النَّاصِحَةِ، مِنْهَا الشَّمَامُ وَالْكَرْمَةُ! وَلَمْ أَكُنْ أَصَدِّقُ مَدَى وَفَرَةِ الْأَشْجَارِ وَالْكَرْمَةِ، فَقَرَّرْتُ التَّخَيُّمَ فِي الْبُسْتَانِ لِقَضَاءِ اللَّيْلِ؛ لِذَا صَعَدْتُ إِلَى أَعْلَى شَجَرَةٍ جَيِّدَةٍ وَمَتِينَةٍ وَعَرَفْتُ فِي النَّوْمِ.

كَانَ الصَّبَاحُ مُشْرِقًا وَصَافِيًا. اتَّبَعْتُ نَفْسَ الْمَسَارِ وَأَكْمَلْتُ سَيْرًا جِهَةَ الشَّمَالِ، وَهُنَاكَ وَجَدْتُ فَتْحَةً لِمَسَاحَةِ نَضْرَةٍ، وَخَضْرَاءَ، وَمُزْدَهَرَةً مِنَ الْأَرْضِ، فَكَانَتْ رَائِعَةً. وَبَدَتْ كَأَنَّهَا حَدِيقَةٌ مَزْرُوعَةٌ. وَكَانَتْ أَشْجَارُ اللَّيْمِ وَاللَّيْمُونِ مُزْدَهَرَةً، مِثْلَهَا مِثْلُ شَجَرِ الشَّمَامِ وَالْعِنَبِ. وَكَانَ هُنَاكَ أَيْضًا أَشْجَارُ الْكَأَاوِ وَالْبُرْتُقَالِ، لَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ مُثْمِرَةً. وَقَطَعْتُ مِنَ الْفَاكِهَةِ الطَّارِجَةِ قَدْرًا مَا أَمَكَّنِي حَمْلَهُ.

عُدْتُ بِاتِّجَاهِهِ أَوَّلَ بُسْتَانِ وَجَدْتُهُ، وَقَرَّرْتُ أَخَذَ بَعْضَ الْعِنَبِ لِلْبَيْتِ أَيْضًا. وَأَخَذْتُ
وَقْتًا طَوِيلًا جِدًّا كَيْ أَرْجِعَ لِلْمَحِيمِ. وَعِنْدَ وُصُولِي، أَخَذَ شَيْبِي يَنْبُحُ؛ فَكَانَ مَسْرُورًا جِدًّا
لِرُؤْيَيْي. فَاجْتَمَلًا، كُنْتُ غَائِبًا لِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ!

شَعَرْتُ بِخَبِيئَةِ أَمَلٍ حِينَ اكْتَشَفْتُ أَنَّ الْعِنَبَ انْسَحَقَ فِي طَرِيقِي إِلَى الْبَيْتِ، إِلَّا أَنَّ
اللِّيمَ وَاللَّيْمُونَ كَانَا صَالِحِينَ، فَصَبَبْتُ مَاءً حَسَنًا وَبَارِدًا فِي إِنَاءٍ، ثُمَّ أَضَفْتُ الْفَاكِهَةَ، فَكَانَ
رَائِعًا بِحَقِّ.

وَعِنْدَمَا انْطَلَقْتُ فِي الْيَوْمِ التَّالِي، حَمَلْتُ مَعِي حَقِيبَتَيْنِ كَيْ أُنْمَكِّنَ مِنْ جَمْعِ الْمَزِيدِ
مِنَ الْفَاكِهَةِ. وَبَدَلًا مِنْ أَخَذِ الْعِنَبِ لِلْبَيْتِ، قَطَعْتُ الْعِنَبَ وَعَلَقْتُهُ عَلَى أَغْصَانِ الْأَشْجَارِ
الْأُخْرَى حَتَّى يَجِفَّ لِيُصْبِحَ زَبِيبًا، ثُمَّ مَلَأْتُ حَقِيبَتِي بِالْمَزِيدِ مِنَ الْفَاكِهَةِ وَأَتَّجَهْتُ عَائِدًا
إِلَى مُحَيَّمِي.

وَنَضَّحَ زَبِيبِي فَأَصْبَحَ رَائِعًا وَلَذِيذَ الْمَذَاقِ. وَأَقَمْتُ مَأْوَى صَغِيرًا فِي الْوَادِي، وَأَسَمَيْتُهُ
مَنْزِلِي الصَّيْفِيِّ!

وَمَضَى الْأَنَ عَلَى وُجُودِي فِي الْجَزِيرَةِ سَنَةً كَامِلَةً. وَكَانَ يَوْمُ الذِّكْرِى السَّنَوِيَّةِ تَعْيِسًا
فِي رَأْيِي. وَقَضَيْتُ مُعْظَمَهُ مُفَكِّرًا فِي كُلِّ مَا حَدَثَ. وَآخِرُ جُمْلَةٍ كَتَبْتُهَا فِي يَوْمِيَّاتِي لِهَذِهِ
السَّنَةِ كَانَتْ: «لَكُمْ مِنَ الْوَقْتِ سَاطِلٌ بَاقِيًا هُنَا؟»

الفصل السابع عشر

روبسون المزارع

بَدَأَتْ سَنَتِي الثَّانِيَةَ عَلَى الْجَزِيرَةِ. وَعَلَى مَدَى الْإِثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا الْمَاضِيَةَ كُنْتُ قَدْ عَلِمْتُ الْكَثِيرَ عَنْهَا. فَبَدَلًا مِنَ الْمَوَاسِمِ الْأَرْبَعَةِ الْمُحَدَّدَةِ الَّتِي عَرَفْتُهَا فِي بَلَدِي فِي إِنْجِلْتْرَا، كَانَ لِلطَّقْسِ هُنَا دَوْرَةٌ مُخْتَلِفَةٌ تَمَامًا؛ فَهُنَا مَوْسِمَانِ فَقَطْ: أَحَدُهُمَا مُمَطِّرٌ وَالْآخَرُ جَافٌ. فَيُمْكِنُ أَنْ تُمْطَرَ لثَلَاثَةَ شُهُورٍ ثُمَّ تَجِفُّ لِنَفْسِ الْفِتْرَةِ الزَّمْنِيَّةِ. وَعَلِمِي بِهِذَا كَانَ يَعْنِي أَنَّ بَوْسَعِي الْبَدَاءَ فِي ذَلِكَ الْحِينِ فِي التَّحْضِيرِ لِلشُّهُورِ الْمُمَطِّرَةِ كَيْ لَا أُضْطَرَّ لِقَضَاءِ الْكَثِيرِ مِنَ الْوَقْتِ فِي الْخَارِجِ.

وَكَانَ ذَلِكَ فِي قَرَابَةِ الْوَقْتِ الَّذِي حَاوَلْتُ فِيهِ إِنْبَاتَ بَعْضِ الْمَحَاصِيلِ، فَزَرَعْتُ بَعْضَ الشَّعِيرِ وَالْأُرْزِ الَّذِي نَمَا فِي سَاحَتِي الْأَمَامِيَّةِ سَابِقًا فِي السَّنَةِ الْمَاضِيَةِ كَيْ أَحْصَلَ عَلَى بُدُورِهَا. وَبَاءَتْ مُحَاوَلَتِي الْأُولَى لِإِنْمَاءِ أَيِّ شَيْءٍ مُفِيدٍ بِالْفِشْلِ التَّامِّ، فَلَمْ أَدْرِ كَيْفَ سَيُؤَثِّرُ مَوْسِمَا الْجَزِيرَةِ، الْمُمَطِّرُ وَالْجَافُ، عَلَى الْمَحَاصِيلِ؛ وَلِذَا زَرَعْتُ بُدُورِي الْأُولَى بَعْدَ الْمَوْسِمِ الْمُمَطِّرِ مُبَاشَرَةً. حَسَنًا، كَانَ هَذَا خَطَأً! فَلَمْ أَفَكِّرْ فِي مَدَى الْجَدْبِ الْفِعْلِيِّ فِي فَصْلِ الْجَفَافِ! وَلَكِنْ كَانَ مِنَ الرَّائِعِ أَنَّي لَمْ أَسْتَحْدِمْ كُلَّ الْبُدُورِ الَّتِي لَدَيَّ، فَأَبْقَيْتُ الْكَثِيرَ تَحْسَبًا لِإِحْتِيَاجِي مُحَاوَلَةَ الزَّرَاعَةِ مُجَدَّدًا.

وَالآنَ، بَعْدَمَا عَلِمْتُ أَنَّ بُدُورِي تَحْتَاجُ جَوًّا رَطْبًا، انْتَهَظْتُ كَيْ أَرْزَعَهَا بِحُلُولِ الْمَوْسِمِ الْمُمَطِّرِ الْقَادِمِ، وَفَكَّرْتُ كَذَلِكَ أَنَّهُ رَبَّمَا لَا يَكُونُ مِنَ الْمُسْتَحْسِنِ أَنْ أَرْزَعَهَا فِي سَاحَتِي، فَالْفَاكِهَةُ تَنْمُو عَلَى نَحْوِ جَيْدٍ جَدًّا فِي الْوَادِي؛ لِذَا قَرَّرْتُ أَنَّ هَذِهِ التَّرْبَةُ هِيَ الْمُنَاسِبَةُ لِمَحَاصِيلِي.

وَنَجَحْتُ فِي مُحَاوَلَتِي الثَّانِيَةِ! نَمَتِ الْمَحَاصِلُ صَاحِحَةً وَقَوِيَّةً، وَلِأَنَّهُ كَانَ هُنَاكَ مَوْسِمَانِ مَطِيرَانِ فِي الْعَامِ، عَرَفْتُ أَنَّي أَسْتَطِيعُ الْإِعْتِمَادَ عَلَى الْأَقْلِّ عَلَى مَحْصُولَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ.

وَفِي أَثْنَاءِ الْمَطَرِ، كُنْتُ أَبْقَى فِي الدَّاخِلِ، وَأَظَلُّ مُنْشَغَلًا بِمُحَاوَلَةِ صُنْعِ أَشْيَاءَ مُفِيدَةٍ. أَوَّلًا، حَاوَلْتُ عَمَلَ سَلَّةٍ، فَعِنْدَمَا كُنْتُ صَبِيًّا، ذَهَبْتُ مَعَ وَالِدِي لِمُشَاهَدَةِ صَانِعِ السَّلَالِ فِي الْمَدِينَةِ؛ لِذَا كُنْتُ أَعْرِفُ عَلَى نَحْوِ يَشُوبِهِ الْعُمُوضُ كَيْفِيَّةَ عَمَلِ السَّلَّةِ، لَكِنَّ تَحْوِيلَ هَذِهِ الْأَفْكَارِ إِلَى حَيِّزِ التَّنْفِيزِ كَانَ قِصَّةً مُخْتَلَفَةً بِالْكَامِلِ.

وَقَبْلَ بَدْءِ الْأَمْطَارِ، اسْتَخْلَصْتُ بَعْضَ الْخَشَبِ مِنْ شَجَرِ النَّخِيلِ الْمَرْزُوعِ بِجَوَارِ مَنْزِلِي الصَّيْفِيِّ. وَكَانَتْ هَذِهِ السِّيْقَانُ الْحَشَبِيَّةُ مَوْجُودَةً بِجَوَارِ النَّارِ، فَجَفَّتْ عَلَى مَدَى أَشْهُرٍ. وَكَانَتْ هَذِهِ هِيَ الْمَادَّةُ الْخَامَ الَّتِي أَرَدْتُ اسْتِخْدَامَهَا لِعَمَلِ السَّلَالِ.

بَدَتِ الْأَعْدَادُ الْقَلِيلَةُ الْأُولَى مِنَ السَّلَالِ الَّتِي نَسَجْتُهَا فِي غَايَةِ الْبِشَاعَةِ، فَكَانَتْ كُلُّهَا غَيْرَ مُتَنَاسِقَةٍ وَكَانَ نَسْجُهَا غَيْرَ مُتَنَاسِبٍ، لَكِنِّي لَمْ أُبَالِ بِشَكْلِهَا، فَاسْتَخْدَمْتُهَا وَحَسَبُ عَلَى أَيِّ حَالٍ. وَأَحْزَنْتُ تَقْدُّمًا فَكَانَتْ كُلُّ سَلَّةٍ جَدِيدَةٍ أَفْضَلَ مِنْ سَابِقَتِهَا، وَاسْتَفَدْتُ مِنْهَا بِالتَّأَكِيدِ. فَاسْتَخْدَمْتُهَا لِحَمْلِ الْبُدُورِ، وَلِتَحْزِينِ بِضَاعَتِي، وَلِنَقْلِ الْمَوْنِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ. انْتَهَى الْمَوْسِمُ الْمُمْطِرُ، وَعَادَتِ الْأَيَّامُ الْمُشْمِسَةُ مِنْ جَدِيدٍ، وَبَدَأَتِ الْخَوَاطِرُ تَجُولُ فِي عَقْلِي، وَبَدَأْتُ أَنَا فِي اسْتِكْشَافِ الْمَزِيدِ فِي الْجَزِيرَةِ. وَفِي خِلَالِ أُسْبُوعٍ مِنَ الطَّقْسِ الْجَدِيدِ، انْطَلَقْتُ أَنَا وَشِيبِي لِنَيْتِنَا الصَّيْفِيِّ.

كَانَتْ وَجْهَتِي هِيَ شَاطِئُ الْبَحْرِ الْوَاقِعَ عَلَى الْجَانِبِ الْآخَرَ مِنَ الْجَزِيرَةِ، فَوَقَفْتُ عَلَى أَعْلَى التَّلِّ وَنَظَرْتُ مُتَمَعِّنًا فِي الْأَرْجَاءِ لِأَكْتِشَافِ أَفْضَلِ الطَّرِيقِ لِلذَّهَابِ حَيْثُ أُرِيدُ. فَهَذَا التَّلُّ كَانَ بِالْفِعْلِ أَعْلَى نِسْبِيًّا مِنْ أَيِّ أَرْضٍ قَرِيبَةٍ مِنْ أَيِّ مَنْزِلِي، وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ، رَأَيْتُ هُنَاكَ أَرْضًا تَمْتَدُّ لِنَحْوِ عِشْرِينَ فَرَسَخًا فِي الْبَحْرِ.

فَرَاوَدَنِي التَّفَكِيرُ: «أَيْنَ أَنَا؟ وَمَا هَذِهِ الْأَرْضُ؟» بَحَثْتُ فِي عَقْلِي عَنْ أَيِّ شَيْءٍ قَدْ أَعْرِفُ عَلَيْهِ، لَكِنَّ بِلَا جَدْوَى، فَلَمْ تَكُنْ لَدَيَّ أَيُّ فِكْرَةٍ عَنْهَا. وَأَقْرَبُ مَا اسْتَطَعْتُ التَّفَكِيرَ فِيهِ هُوَ وُجُودِي عَلَى جَزِيرَةٍ فِي الْجُزءِ الْإِسْبَانِيِّ مِنَ الْأَمْرِيكَتَيْنِ. وَلَوْ كَانَ هَذَا صَاحِحًا، فَلَأَمْرٌ خَطِيرٌ جِدًّا، فَالرَّجَالُ الَّذِينَ يَعِيشُونَ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ غَيْرُ وَدُودِينَ جِدًّا. فَسَمِعْتُ

عَنْهُمْ الْكَثِيرَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمُرْعَبَةِ مِنْ بَحَارَةِ آخَرِينَ فِي رِحْلَاتِي؛ فَهُمْ لَا يُجِبُونَ الْغُرَبَاءَ بَنَاتًا وَيُحَاوِلُونَ إِبْعَادَ أَيِّ شَخْصٍ عَنْ جُزْرِهِمْ.

لَكِنِّي لَمْ أَدْعُ هَذِهِ الْأَفْكَارَ الْمُقْبِضَةَ تَخِيفِي، فَأَنَا لَمْ أَرِ قَطُّ إِنْسَانًا آخَرَ عَلَى جَزِيرَتِي؛ لِذَا كُنْتُ أَمِنًا حِينِنِذٍ. وَأَنْطَلَقْتُ أَنَا وَشِيبِي فِي مِعَامَرَتِنَا الصَّغِيرَةِ، وَرَبَّمَا كَانَ سَبَبُ اضْطِحَابِي لَهُ هُوَ الْإِسْتِمَاعَ وَحَسْبُ إِلَى وَقَعِ صَوْتِي، فَتَحَدَّثْتُ وَتَحَدَّثْتُ إِلَى الْكَلْبِ، وَأَخْبَرْتُهُ كُلَّ شَيْءٍ عَنْ حَيَاتِي، وَعَنْ خَطْطِي، وَعَنْ مَكَانِي قَبْلَ أَنْ أَهْبِطَ عَلَى الْجَزِيرَةِ مَعَهُ. وَكَانَ يَخْبُ بِجَوَارِي، سَعِيدًا أَيْمًا سَعَادَةً.

كَانَ الْجَانِبُ الْآخَرُ مِنَ الْجَزِيرَةِ جَمِيلًا جَدًّا، فَهَنَّاكَ بِبَغَاوَاتٍ عَلَى الْأَشْجَارِ وَالْعَدِيدِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْمُثِيرَةِ. فَفَرَرْتُ أَخَذَ بَبْغَاءٍ لِلْمَنْزِلِ كَطِيرِ أَلَيْفٍ، وَأَسْمَيْتُهُ بُولَ.

قَضَيْتُ الْعَدِيدَ مِنَ اللَّيَالِي بَعِيدًا عَنِ الْمَنْزِلِ فِي تِلْكَ الرَّحْلَةِ. وَكَانَ وَقْتًا بَهِيجًا وَمُمْتَعًا، بِاسْتِنَاءِ الْأَيَّامِ الْقَلِيلَةِ الَّتِي قَضَيْتُهَا أَنَا وَشِيبِي تَائِهَيْنِ فِي وَادٍ شَاسِعٍ. فَكَمْ يَكُونُ النَّبْتُ رَائِعًا عِنْدَمَا تَكُونُ بَعِيدًا! مَتَّعْتُ نَظْرِي بِكُلِّ شَيْءٍ! وَحَتَّى سِلَابِي غَرِيبَةُ الشَّكْلِ كَانَتْ تَرَسُمُ الْبُسْمَةَ عَلَى وَجْهِي.

قُلْتُ وَأَنَا أَسْقُطُ لَاحِجًا إِلَى رَاحَةِ أَرْجُوحَتِي الشَّبَكِيَّةِ: «أِهْ يَا شِيبِي، مَنْزِلِي الْعَزِيزَ». وَكَانَتْ هَذِهِ لَحْظَةً هَامَّةً، فَبَيْنَمَا كُنْتُ رَاقِدًا، أُرْتَشِفُ الْمِيَاءَ بِالْفَاكِهِةِ، وَأَتَأَرَّجِحُ جِيئَةً وَذَهَابًا عَلَى أَرْجُوحَتِي، تَوَقَّفْتُ عَنِ الشُّعُورِ بِالْأَسَى عَلَى نَفْسِي. أَجَلٌ، كُنْتُ عَالِقًا عَلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ. وَأَجَلٌ، كُنْتُ وَحِيدًا تَمَامًا. وَهَذَا حَقِيقِي، فَيَا لَهَا مِنْ حَيَاةٍ شَاقَّةٍ، لَكِنَّهَا كَذَلِكَ حَيَاةٌ شَائِقَةٌ، فَكُنْتُ مُمْتَنًّا أَنْبِي عَلَى قَبْدِ الْحَيَاةِ وَأَنْبِي نَجَوْتُ مِنْ تَحْطُمِ السَّفِينَةِ.

الفصل الثامن عشر

وَتَسْتَمِرُّ الْحَيَاةُ

فِي سَنَتِي الثَّالِثَةِ عَلَى الْجَزِيرَةِ، بَدَأَتْ حَيَاتِي اليَوْمِيَّةُ تَأْخُذُ شَكْلًا مُحَدَّدًا؛ فَكُنْتُ مُنْشَغِلًا بِالصَّيْدِ وَالطَّهْيِ فِي صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ، تَمَامًا مِثْلَمَا كُنْتُ أَفْعَلُ كُلَّ صَبَاحِ طَوَالَ السَّنَتَيْنِ الْمَاضِيَتَيْنِ. وَكُنْتُ أَقْضِي فَتْرَاتٍ بَعْدَ الظَّهِيرَةِ فِي الْعَمَلِ عَلَى مَشَارِيعِ، كِبْنَاءِ الْأَرْفَفِ وَتَحْسِينِ مَنْزِلِيَّ كِلَيْهِمَا.

كُنْتُ أَنْجِبُهُ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ إِلَى وَادِيٍّ وَاتَّفَقْتُ مَحَاصِيلِي، وَكَانَتْ بِخَيْرِ حَالٍ، بِالرَّغْمِ مِنَ الْتِفَاتِ الطُّيُورِ وَالْأَرَانِبِ الْبَرِّيَّةِ مِنْ حَوْلِهَا إِلَيْهَا؛ وَلَكِنِّي أَحَلُّ مُشْكَلَةَ الطُّيُورِ قُمْتُ بِتَعْلِيقِ رِيَشٍ فِي كَافَّةِ الْأَرْجَاءِ لِإِخَافَتِهَا، وَلِحَلِّ مُشْكَلَةِ الْأَرَانِبِ بَنَيْتُ سَيَاجًا حَوْلَ مَحَاصِيلِي كَيْ لَا تَتَمَكَّنَ الْأَرَانِبُ الْبَرِّيَّةُ مِنَ الدُّخُولِ. وَنَجَحَ كِلَا الْحَلِّينِ، وَسَرِيعًا أَصْبَحَتِ الْمَحَاصِيلُ فِي مَأْمَنِ مِنَ الْحَيَاةِ الْبَرِّيَّةِ فِي الْمِنْطَقَةِ.

كَانَ الْحَصَادُ هَذَا الْعَامَ هَزِيلًا؛ لِذَا قَرَّرْتُ إِعَادَةَ إِنْبَاتِ الْحُبُوبِ الَّتِي زَرَعْتُهَا مِنْ قَبْلُ. وَكَانَ مِنْ دَوَاعِي شُعُورِي بِالسُّرُورِ فِي حَيَاتِي الْقَدِيمَةِ وَالَّذِي اشْتَهَيْتُ بِشِدَّةِ الْحُصُولِ عَلَيْهِ هُوَ الْحُبُّزُ، وَلَكِنْ كَانَ عَلَيَّ التَّأَكُّدُ مِنْ تَوَافُرِ الشَّعِيرِ وَالْأُرْزِ بِمَا يَكْفِي لِتَحْوِيلِ هَذَا الْحُلْمِ لِحَقِيقَةٍ.

وَعِنْدَمَا بَدَأَتِ الْأَمْطَارُ فِي الْهَطُولِ، كَالْمُعْتَادِ، مَكُنْتُ فِي الدَّاخِلِ قَدْرَ الْمُسْتَطَاعِ، وَقَضَيْتُ بَضْعَةَ أُسَابِيعٍ جَمِيلَةٍ فِي مُحَاوَلَةِ تَعْلِيمِ بُولِ الْبَيْغَاءِ التَّحَدُّثِ، وَتَعَلَّمُ فِي النِّهَائَةِ قَوْلَ كَلِمَاتٍ وَجُمَلٍ قَلِيلَةٍ.

وَكذَلِكَ كَانَ هَذَا الْمَوْسِمُ بِدَايَةِ صُنْعِي الْفَخَّارِ، فَهَنَّاكَ كَمِيَّةً وَافِرَةً مِنَ الصَّلْصَالِ الطَّبِيعِيِّ عَلَى الْجَزِيرَةِ. عَمِلْتُ عِدَّةَ مُحَاوَلَاتٍ لِإِحْمَاءِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي شَكَّلْتُهَا فِي النَّارِ، وَلَكِنَّهَا فِي كُلِّ مَرَّةٍ كَانَتْ تَخْرُجُ مَكْسُورَةً.
وَتَسَاءَلْتُ: «مَا الْخَطَأُ الَّذِي أَفَعَلُهُ؟»

جَرَّبْتُهَا عَلَى أَنْوَاعٍ حَرَارَةٍ مُخْتَلِفَةٍ. وَسَرِيعًا، عَرَفْتُ أَنَّهَا لَا تَتَكَسَّرُ عِنْدَ وَضْعِهَا عَلَى الْجَمْرِ، بَدَلًا مِنْ وَضْعِهَا مُبَاشَرَةً عَلَى النَّارِ. وَمِثْلَ سِلَالِي، كَانَتْ السُّلْطَانِيَّاتُ بَعِيدَةً تَمَامًا عَنِ الْإِتْقَانِ. صَنَعْتُ الْعَدِيدَ مِنَ الْقُدُورِ لِلطَّبَخِ وَبَدَأْتُ أَسْتَمْتِعُ بِنَوُوعٍ وَجِبَاتِ الْعِشَاءِ، مِثْلَ الْيَخْنَةِ وَالْمَرَقِ! وَيَا لَهُ مِنْ تَغْيِيرٍ فِي وَجِبَاتِي الْمُعْتَادَةِ بَعْدَ أَنْ كُنْتُ أَتَنَاوَلُ اللَّحْمَ الْمَشْوِيَّ عَلَى النَّارِ.

فِي هَذِهِ السَّنَةِ، حَقَّقَ حَصَادِي الثَّانِي أَيْضًا النَّجَاحَ، وَأَصْبَحَ لَدَيَّ وَقْتِيذٌ مَا يَكْفِي مِنَ الْبُذُورِ فِي الْمَخْزَنِ، فَشَعَرْتُ بِالْإِطْمِئْنَانِ لِ مُحَاوَلَةِ صُنْعِ الْخُبْزِ. وَكَانَ الْبَسْكَوَيْتُ الَّذِي أَحْضَرْتَهُ مِنَ السَّفِينَةِ قَدْ نَفِدَ مِنْذُ زَمَنٍ، وَاشْتَهَيْتُ شَيْئًا مِثْلَهُ. فَأَوَّلًا، نَحْتُ سُلْطَانِيَّةً كَبِيرَةً مِنْ قِطْعَةِ الْخَشَبِ الْحَدِيدِيِّ الَّتِي قَطَعْتُهَا مِنْذُ مَا يَقْرُبُ مِنْ سَنَتَيْنِ كَامِلَتَيْنِ. وَثَانِيًا، وَضَعْتُ بَعْضًا مِنْ حِنْطَتِي فِي السُّلْطَانِيَّةِ وَحَاوَلْتُ طَحْنَهَا لِتُصْبِحَ طَحِينًا. وَبَعْدَ هَذَا، غَرَبَلْتُ الطَّحِينَ بِاسْتِخْدَامِ مَلَابِسٍ قَدِيمَةٍ، عَلَى أَمَلٍ فَضِلِ الْقِشْرَةَ مِنْهَا.
وَحِينَئِذٍ أَضْحَى لَدَيَّ الدَّقِيقُ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ مَعِيَ خَمِيرَةٌ لِنَفْسِ الْعَجِينِ وَانْتِفَاحِهِ، وَكَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لَدَيَّ أَيُّ زُبْدٍ لِإِضَافَةِ نَكْهَةٍ أَوْ شَحْمٍ لِأَخْبِزَ بِهِ. لِذَا، بِبَسَاطَةٍ خَلَطْتُ الدَّقِيقَ بِالْمَاءِ وَتَمَنَيْتُ الْحُصُولَ عَلَى أَفْضَلِ نَتِيجَةٍ. وَكَانَتْ الْأَرْغَفَةُ الَّتِي صَنَعْتُهَا أَفْضَلَ قَلِيلًا مِنَ الْخُبْزِ الْمُسَطَّحِ، لَكِنَّهُ كَانَ لَدِيدًا.

وَاسْتَمَرَّ نَجَاحُ الْمَحَاصِيلِ. وَلَمْ أَرِدْ إِتْلَافَ أَيِّ مِنَ الْبُذُورِ؛ لِذَا بَدَأْتُ بِالزَّرَاعَةِ مَرَّةً وَاحِدَةً فَقَطْ فِي الْعَامِ. وَكُنْتُ أَعْرِفُ كَمَ الْبُذُورِ الَّتِي أَحْتَاجُهَا، وَكَمَ الدَّقِيقِ الَّذِي يُمَكِّنُنِي عَمَلَهُ وَاسْتِخْدَامَهُ بِالْفِعْلِ؛ فَلَمْ أَرْغَبْ فِي إِهْدَارِ أَيِّ شَيْءٍ.

الفصل التاسع عشر

قَارِبُ

فِي شَهْرِ سَبْتَمْبَرِ الَّذِي بَدَأْتُ بِهِ سَنَتِي الرَّابِعَةَ عَلَى الْجَزِيرَةِ، فَكَرْتُ مَلِيًّا وَجِدِّيًّا فِي الْإِنْتِقَالِ إِلَى الْجَانِبِ الْأُخْرَى مِنَ الْجَزِيرَةِ. فَلَمْ أَشُكْ كَثِيرًا فِي أَنَّهُ كَانَ أَجْمَلَ بِكَثِيرٍ مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي قَرَّرْتُ الْإِسْتِقْرَارَ فِيهِ، وَدَفَعْتَنِي إِلَى ذَلِكَ أَحْتِمَالِيَّةٌ رُؤْيِي لِلأَرْضِ مِنْ هُنَاكَ. وَجَعَلَنِي ذَلِكَ أَوْدُ الْهُرُوبِ. وَتَذَكَّرْتُ قُصُورِي الْيَافِعِ وَمَرَكَبَنَا وَتَمَنَيْتُ لَوْ كَانَ بِحَوْرَتِي ذَاتُ الْقَارِبِ عَلَى الْجَزِيرَةِ. فَكَمْ كُنْتُ سَاقِطُوعٌ مِنْ مَسَافَةٍ!

وَبِالرُّغْمِ مِنْ هَذَا الْحَيْنِ لِلْعُودَةِ إِلَى الْحَضَارَةِ، كُنْتُ خَائِفًا أَيضًا مِنْ مُغَادَرَةِ الْجَزِيرَةِ. فَمَاذَا لَوْ انْتَهَى بِي الْمَطَافُ فِي مَكَانٍ أَسْوَأَ؟ وَكَذَلِكَ، مَضَى عَلَى وَجُودِي عَلَى الْجَزِيرَةِ فَتْرَةً طَوِيلَةً وَلَمْ أَرَ خِلَالَهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ إِنْسَانًا آخَرَ. وَبِالْمِثْلِ لَمْ أَرَ أَيَّ شَيْءٍ. فَقُلْتُ لِنَفْسِي: «أَنْتِ تَعْرِفُ بِالتَّجْرِبَةِ يَا رُوبِنْسُونُ أَنَّ الْأَسْوَأَ يَحْدُثُ فِيمَا يَبْدُو دَائِمًا عِنْدَمَا تُغَامِرُ بَعِيدًا عَنْ مَوْطِنِكَ.» لَا، لَنْ أُنْقَلَ مُخَيَّمِي؛ فَهُوَ آمِنٌ وَمُرِيحٌ، وَيَجِبُ عَلَيَّ الْبَقَاءُ فِي مَكَانِي فِي الْوَقْتِ الْحَالِي.

وَهَذَا لَمْ يَكُنْ يَعْنِي أُنِّي تَوَقَّفْتُ عَنِ التَّفَكُّيرِ فِي مُغَادَرَةِ الْجَزِيرَةِ، فَأَرَدْتُ بِشِدَّةٍ الْحُصُولَ عَلَى قَارِبٍ. وَفِي حِينٍ لَا زَالَتْ أَجْزَاءُ سَفِينَتِنَا مُخَبَّأَةً فِي الْأَسْفَلِ بِجَوَارِ الشَّاطِئِ، فَرَبَّمَا يَكُونُ هُنَاكَ سَبِيلٌ لِإِصْلَاحِهَا فِي النِّهَائِيَّةِ.

حَسَنًا، كَانَتْ هَذِهِ الْفِكْرَةُ حَمَقَاءً. فَبَعْدَ أَسَابِيحٍ مِنَ الْعَمَلِ الشَّاقِّ، أُجْبِرْتُ عَلَى الْوُصُولِ لِذَاتِ النَّتِيجَةِ؛ فَلَا يُمْكِنُ إِصْلَاحُ هَذَا الْقَارِبِ!

إِلَّا أَنَّنِي ظَلَلْتُ بِحَاجَةٍ لِأَنَّ أُمَّتَكَ قَارِبًا. فَحَسَمْتُ أَمْرِي، وَقُلْتُ بِصَوْتِ عَالٍ: «عَلَيَّ فَقَطْ أَنْ أَصْنَعَ قَارِبًا!»

وَمَرَّةً أُخْرَى، يَا لَهَا مِنْ حُطَّةٍ حَمَقَاءَ! فَلَمْ أَفَكَّرْ بِتَمَعْنٍ فِيهَا قَبْلَ أَنْ أَبْدَأَ. فَصَيْتُ
أَسَابِيعَ فِي الْغَابَةِ لِأَقْطَعِ الشَّجَرَةَ الْمُنَاسِبَةَ، وَبِمَجْرَدِ سُقُوطِهَا، قَضَيْتُ مَا يَقْرُبُ مِنْ أَرْبَعَةِ
أَشْهُرٍ فِي تَشْكِيلِ الْقَاعِ وَالْحَفْرِ مِنَ الدَّخْلِ. وَعِنْدَمَا انْتَهَيْتُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ، أَضْحَى لَدَيَّ
زُورْقٌ مُتَوَسِّطُ الْحَجْمِ. وَبَقِيَتْ مُشْكِلةٌ وَاحِدَةٌ فَقَطْ؛ كَيْفَ يُمَكِّنِي إِنْزَالُ الْقَارِبِ إِلَى الْمَاءِ؟
فَوَقْتَنِيذٍ كَانَ الزُّورْقُ مُسْتَقَرًّا فِي مُنْتَصَفِ الْغَابَةِ!

دَفَعْتُهُ، وَجَذَبْتُهُ، وَجَرَرْتُهُ، وَرَكَلْتُهُ، وَصَرَحْتُ، وَبِيسَاطَةٍ لَمْ يَتَزَحَّجِ الْقَارِبُ. وَلَمْ
يَكُنْ هُنَاكَ سَبِيلٌ لِأَتَمَكَّنَ مِنْ سَحْبِهِ طَوَالَ الطَّرِيقِ عَبْرَ الْغَابَةِ وَالْوَادِي، ثُمَّ إِلَى الشَّاطِئِ.
فَبِمَاذَا كُنْتُ أَفَكِّرُ بِحَقِّ السَّمَاءِ؟

وَأَنْتَهَى صِرَاعِي مَعَ الزُّورْقِ بِلَا شَيْءٍ سِوَى الْإِحْبَاطِ، فَهَذَا الْقَارِبُ عَالِقٌ عَلَى الْيَابِسَةِ
إِلَى الْأَبَدِ. وَقُلْتُ لِشَيْبِي: «كَمْ هُوَ أَمْرٌ مُضْحِكٌ، فَعَلَى الشَّاطِئِ، لَدَيَّ أَجْزَاءٌ مِنْ سَفِينَةٍ لَا
يُمْكِنُ أَنْ تَطْفُوَ عَلَى صَفْحَةِ الْمَاءِ. وَفِي الْغَابَةِ، لَدَيَّ زُورْقٌ يُمَكِّنُ أَنْ يَطْفُوَ، لَكِنِّي لَا
أَسْتَطِيعُ إِنْزَالَهُ إِلَى الْمَاءِ!»

وَهَكَذَا، احْتَفَلْتُ بِالذِّكْرِى السَّنَوِيَّةِ الرَّابِعَةِ عَلَى الْجَزِيرَةِ بِقَارِبَيْنِ، لَكِنَّ أَيًّا مِنْهُمَا لَمْ
يُسَاعِدْنِي عَلَى الْهَرُوبِ مِنْ جَزِيرَتِي!

وَبِالرُّغْمِ مِنَ الْحَطِّ الْعَاطِرِ مَعَ الْقَارِبَيْنِ، فَكَانَ هُنَاكَ مِنَ الطَّعَامِ مَا يَكْفِينِي وَمِنَ
الْمَاءِ مَا يَزُونِي. وَكَانَ مَنزِلِي أَمِنًا وَجَافًا (مُعْظَمَ الْوَقْتِ!) وَكَانَ هُنَاكَ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَا
اِفْتَقَدْتُهُ، مِثْلَ الْجَزْرِ وَالْبَازِلَاءِ، لَكِنِّي كُنْتُ بِصِحَّةٍ جَيِّدَةٍ وَهَذَا هُوَ كُلُّ مَا يَهُمُّ حَقِيقَةً.
فَبِالْإِجْمَالِ، كَانَتِ السَّنَةُ الرَّابِعَةُ جَيِّدَةً.

بَدَأَ الْمَوْسَمُ الْمُمْطِرُ، وَحَانَ الْوَقْتُ كَيْ أَقْبَسَ وَأَعْدَلَ مَلَابِسِي. فَكُنْتُ قَدْ انْتَشَلْتُ
الْكَثِيرَ مِنْ مَلَابِسِ الْبَحَارَةِ قَدْرَ مَا أَمَكَّنِي مِنَ السَّفِينَةِ مُنْذُ سَنَوَاتٍ مَضَتْ. وَكَانَتْ أَهْمُ
الْأَشْيَاءِ الَّتِي أَخَذْتُهَا هِيَ الْقُمْصَانُ. فَإِجْمَالًا، كَانَ مَعِيَ قُرَابَةُ عَشْرِينَ قَمِيصًا، وَكَانَتِ
الْقُمْصَانُ مَصْنُوعَةً مِنَ الْكُتَّانِ، فَكَانَتْ خَفِيفَةً وَمُرِيحَةً لِلْغَابَةِ، لَكِنَّهَا كَانَتْ فِي طَرِيقِهَا
لِلْبَلْبِ، وَتَحَوَّلَ الْكَثِيرُ مِنْهَا وَقْتَنِيذٍ لِحَرَقٍ بِالْيَةِ. فَحَاوَلْتُ أَنْ أَرْتَدِّيَهَا كُلًّا عَلَى حِدَةٍ، كَيْ تَدُومَ
لِأَطْوَلِ فِتْرَةٍ مُمَكِّنَةٍ.

وَكَنْتُ قَدْ انْتَشَلْتُ كَذَلِكَ الْعَدِيدَ مِنَ الْمَعَاطِفِ مِنَ السَّفِينَةِ مُنْذُ سَنَوَاتٍ مَضَتْ، وَلَكِنَّ
الطَّقَسَ عَلَى الْجَزِيرَةِ كَانَ حَارًّا لِدَرَجَةِ تَمْنَعْنِي مِنْ ارْتِدَائِهَا. فَبَدَلًا مِنْ ارْتِدَائِهَا، حَوَّلْتُهَا

قَارِبُ

إِلَى بِنَاطِيلِ وَسَرَوِيلِ قَصِيرَةٍ. وَلَوْ كَانَتْ سَلَالِي غَيْرَ بَارِعَةٍ، فَإِنَّ خِيَاطِي كَانَتْ أَسْوَأَ بِكَثِيرٍ!
وَبِحُلُولِ الْوَقْتِ الَّذِي انْتَهَيْتُ فِيهِ مِنْ صُنْعِ مَلَابِسِي، بَدَوْتُ مُثِيرًا لِلسُّخْرِيَةِ! فَقُمَصَانِي
بَالِيَّةً، وَسَرَوِيلِي أَرْتَدِيهَا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ فِيمَا سَبَقَ مَعَاطِفَ! وَسَرِيْعًا قَرَّرْتُ صُنْعَ مَلَابِسِي
مِنْ جِلْدِ الْمَاعِزِ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ تَبَعًا لِلْمَوْضِعِ، بَلْ بَحْثًا عَنِ الرَّاحَةِ. وَإِضَافَةً إِلَى مَلَابِسِي
مِنْ جِلْدِ الْمَاعِزِ، صَنَعْتُ أَيْضًا قُبْعَةً، فَلَوْنُ بَشْرَتِي فَاتِحٌ جِدًّا، وَكُنْتُ أَتَعَرَّضُ بِسُهُولَةٍ
لِلْإِحْتِرَاقِ إِذَا مَكُنْتُ فِي الْخَارِجِ لِفَتْرَةٍ أَكْثَرَ مِنَ اللَّازِمِ، وَكَانَتْ الْقُبْعَةُ فَعَالَةً فِي وَقَايَتِي مِنَ
الشَّمْسِ.

وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَعْدِلُ مَلَابِسِي، صَنَعْتُ كَذَلِكَ مِظْلَةً، وَأَصْبَحْتُ أَعْلَى مُقْتَنِيَاتِي؛ فَلَمْ
تَقْتَصِرْ عَلَى حَاجِبِهَا لِلشَّمْسِ عَنِّي وَحَسْبُ، لَكِنَّهَا أَيْضًا أَبَقَّتْنِي جَافًا أَثْنَاءَ الْمَوْسِمِ الْمُمْطِرِ.

الفصل العشرون

حَادِثَةُ أُخْرَى

عَلَى مَدَى الْحَمِيسِ سَنَوَاتِ التَّالِيَةِ، حَقَّقْتُ نَجَاحَاتٍ عَلَى جَزِيرَتِي الصَّغِيرَةِ؛ فَكَانَ حَصَادِي نَاجِحًا، وَاسْتَكْشَفْتُ الْجَزِيرَةَ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَكَانَ شِيبِي وَبُولُ الْيَفِينِ رَائِعَيْنِ، وَكَانَ لَدَيَّ الْكَثِيرُ مِنَ الطَّعَامِ مِنْ أَشْجَارِ الْفَاكِهَةِ، وَكَانَ الصَّيْدُ دَائِمًا حَسَنًا.

وَوَقْتَنِي، اِزْتَكَبْتُ مَا يُمَكِّنُ عُدَّهُ حِمَاقَةً؛ صَنَعْتُ قَارِبًا آخَرَ أَثْنَاءَ هَذِهِ الْفِتْرَةِ، وَتَعَلَّمْتُ أَيْضًا مِنْ أَخْطَائِي. فَبَدَلًا مِنْ اخْتِيَارِ شَجَرَةٍ مِنْ مُنْتَصَفِ الْغَابَةِ، عَثَرْتُ عَلَى أُخْرَى عَلَى مَسَافَةٍ أَقْرَبَ إِلَى الشَّاطِئِ. وَاسْتَعْرَقَ الْأَمْرُ مِنِّي شَهْرًا عَدِيدَةً لِأَنْحَتِ الزُّورَقُ كَمَا يَنْبَغِي. وَعِنْدَمَا انْتَهَيْتُ، أَنْزَلْتُهُ إِلَى الْمَاءِ بَوْضِعِ أَزْنَادِ الْأَشْجَارِ تَحْتَهُ وَدَحْرَجْتُهُ إِلَى الْأَمَامِ. وَمَا إِنْ عَرَفْتُ عَلَى وَجْهِ الْيَقِينِ أَنَّهُ سَيَطْفُو، صَنَعْتُ صَارِيًا صَغِيرًا وَشِرَاعًا. وَالْآنَ، بَدَلًا مِنَ الْمَشْيِ

لِأَمْيَالٍ وَأَمْيَالٍ حَتَّى الْجَانِبِ الْآخَرَ مِنَ الْجَزِيرَةِ، كَانَ يُمَكِّنُنِي السَّفَرُ بِالْقَارِبِ! وَلَئِنْ قَلْبِي ظَلَّ يَتَوَقَّعُ لِلْمُغَامَرَةِ، بَدَأْتُ رِحْلَةً وَبِصُحْبَتِي الْمَوْنُ الْكَافِيَةَ لِيَوْمَيْنِ؛ فَأَخَذْتُ بَعْضَ الطَّعَامِ، وَارْتَدَيْتُ قُبْعَتِي، وَحَمَلْتُ مِظْلَتِي. وَأَبْحَرَ الْقَارِبُ الصَّغِيرَ بِسَلَاسَةٍ حَتَّى الْجَانِبِ الْآخَرَ مِنَ الْجَزِيرَةِ. وَاسْتَحْدَمْتُ الْمَرْسَى الصَّغِيرَ الَّذِي احْتَفَظْتُ بِهِ مِنْ السَّفِينَةِ الْكَبِيرَةِ وَذَهَبْتُ إِلَى الشَّاطِئِ لِلِاسْتِكْشَافِ. وَخَيَّمْتُ فِي الْخَارِجِ لِيَوْمَيْنِ كَامِلَيْنِ. وَمَا إِنْ اسْتَكْشَفْتُ طَبِيعَةَ الْمَكَانِ، أَخَذْتُ طَرِيقَ الْعُودَةِ إِلَى قَارِبِي، وَذَهَبْتُ عَنِ الْمَكَانِ لِأَبْحَرَ عَائِدًا لِلْمَنْزِلِ.

وَبَدَلًا مِنْ عُودَتِي مِنْ نَفْسِ طَرِيقِ قُدُومِي، قَرَّرْتُ الذَّهَابَ مِنَ الْجِهَةِ الْأُخْرَى. وَبَعْدَ فِتْرَةٍ قَصِيرَةٍ مِنْ انْطِلَاقِي، تَلَاقَتِ التِّيَّارَاتُ مِنْ اتِّجَاهَاتٍ عِدَّةٍ، وَبَدَأَتْ الْمِيَاهُ تَجْرِفُنِي إِلَى

دَاخِلَ الْبَحْرِ، وَلَمْ يَبْدُ لِتَجْدِيفِي أَيُّ أَثَرٍ. هَبَّتِ الرِّيحُ بِشِدَّةٍ، بَلْ وَجَرَفْتَنِي إِلَى مَكَانٍ أَبْعَدَ،
وَاحْتَفَّتْ جَزِيرَتِي الصَّغِيرَةَ مِنْ عَلَيَّ بَعْدَ.

صَرَخْتُ: «أَوَا! لِمَاذَا أَنَا؟ لِمَاذَا تَانِيَّةً! مَاذَا أَفْعَلُ؟ أَيْنَ سَأَذْهَبُ؟» لَاحَظَ شَيْبِي
فَرَعِي، فَنَبَّحَ وَنَبَّحَ. وَكُلُّ مَا أَرَدْتُهُ حِينَهَا هُوَ الْعُودَةُ لِلْبَيْتِ. فَكَانَ مُحْصِي جَنَّةَ مُقَارَنَةٍ
بِتَحَطُّمِ قَارِبِي أَوْ شُعُورِي بِالضِّيَاعِ فِي الْبَحْرِ. فَأَنْزَلْتُ الصَّارِي وَالشَّرَاعَ لِأَرَى إِنْ كَانَ
سَيُؤَثِّرُ، وَلَكِنَّ الْقَارِبَ كَانَ قَدْ عَلِقَ فِي التِّيَّارِ.

كَانَ الشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَسْعُنِي عَمَلُهُ هُوَ الْإِنْتِظَارُ. فَتَوَقَّفْتُ عَنِ الْمَحَاوَلَةِ وَتَرَقَّبْتُ
وَالشَّمْسُ تَلْقِي بِأَشْعَتِهَا عَبْرَ جَزِيرَتِي. وَبَعْدَ الظَّهِيرَةِ، تَغَيَّرَتِ الرِّيحُ، وَبَدَأَتْ تَهْبُ شَمَالًا،
مِمَّا بَعَثَ فِيَّ شَيْئًا مِنَ الْأَمَلِ. فَأَعَدْتُ الصَّارِي وَالشَّرَاعَ بِسُرْعَةٍ إِلَى مَكَانِهِمَا لِأَعْلَى، وَلَا شَيْءَ
سِوَى الْعَمَلِ الْمُضْنِي جَعَلَ الْقَارِبَ يَجْتَازُ التِّيَّارَ. فَلَمْ أُبْحَرْ قَطُّ بِهَذِهِ الصُّعُوبَةِ فِي حَيَاتِي.
تَأْرَجَحَ الْقَارِبُ قَلِيلًا، لِلْخَلْفِ وَلِلْأَمَامِ، وَلِلْأَمَامِ وَاللِّخْلَفِ، ثُمَّ قَرَّرْتُ الْبَدْءَ فِي التَّجْدِيفِ. وَبَعْدَ
مَا يَقْرُبُ مِنْ سَاعَةٍ، عَادَ الْقَارِبُ أَحْيَرًا إِلَى مَسَارِهِ وَتَوَجَّهْتُ بِهِ عَائِدًا بِاتِّجَاهِ الْجَزِيرَةِ.

عِنْدَ عُودَتِي إِلَى جَانِبِ الْجَزِيرَةِ الَّذِي اعْتَدْتُهُ، كَانَتِ الشَّمْسُ تَمِيلُ لِلْغُرُوبِ. وَأَرَدْتُ
الْعُودَةَ إِلَى الشَّاطِئِ قَبْلَ حُلُولِ الظَّلَامِ بِالْكَامِلِ. وَبَدَلًا مِنْ مُحَاوَلَتِي الْعُودَةَ إِلَى النَّهْرِ
(حَيْثُ اسْتَحْدَمْتُ الطُّوفَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ وَعَلَيْهِ مُؤْنِي مِنَ السَّفِينَةِ)، قَرَّرْتُ التَّوَقُّفَ عِنْدَ خَلِيجِ
صَغِيرٍ قَبْلَ حُلُولِ الظَّلَامِ مُبَاشَرَةً. وَلِحَسَنِ الْحِظِّ أَنَّ الْمِيَاهَ كَانَتْ هَادِئَةً، وَجَدَفْتُ بِقَارِبِي
إِلَى الشَّاطِئِ.

وَحِينَئِذٍ، كَانَ الظَّلَامُ دَامِسًا، فَرَبَطْتُ الْقَارِبَ وَقَرَّرْتُ الْمَبِيتَ لِقَضَاءِ اللَّيْلِ، وَصَعِدْتُ
إِلَى شَجَرَةٍ وَحَاوَلْتُ النَّوْمَ.

وَبَيْنَمَا كُنْتُ أُحَاوِلُ الْوُصُولَ إِلَى وَضْعِيَّةٍ مُرِيحَةٍ، غَمَمَتْ لِنَفْسِي مُتَدَمِّرًا: «أَفْتَقِدُ
أَرْجُوحَتِي الشَّبَكِيَّةَ.»

وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي، جَدَفْتُ بِالْقَارِبِ بِحَذَرٍ شَدِيدٍ حَتَّى مَمَرٍ مَائِيٍّ صَغِيرٍ قَرِيبٍ
مِنْ مُحْصِي. وَكُنْتُ فِي شِدَّةِ الْإِجْهَادِ حِينَ وَصَلْتُ لِلْبَيْتِ. آه يَا جُدْرَانِي الْعَزِيزَةَ! آه يَا
سِيَاحِي الرَّائِعَ! لَمْ أَقْمِ حَتَّى بِنَزْعِ قُبْعَتِي بَعْدَمَا دَخَلْتُ؛ قَفَرْتُ وَحَسَبُ مُبَاشَرَةً عَلَى

حَادِثَةُ أُخْرَى

أَرْجُو حَتَّى الشَّبَكِيَّةِ وَغَرِقْتُ فِي النَّوْمِ. كَانَ ذِرَاعَايَ وَسَاقَايَ تَتَنُّ مِنَ الْأَلَمِ، أَمَا عَقْلِي فَكَانَ فِي غَايَةِ الْإِرْهَاقِ.

سَمِعْتُ صَوْتًا غَرِيبًا يُنَادِينِي فِي مَنَامِي: «روبِنسون كروزو! روبِنسون كروزو! أَيْنَ كُنْتَ؟ وَكَيْفَ وَصَلْتَ إِلَى هُنَا؟» فَتَعَجَّبْتُ: هَلْ نَجَوْتُ؟ هَلْ أَحْيَا أَتَى أَحَدُهُمْ لِأَخْذِي؟ فَتَحْتُ عَيْنًا وَاحِدَةً وَرَأَيْتُ بُولَ جَائِمًا فَوْقَ صَدْرِي. لَقَدْ كَانَ الْبَبْغَاءُ!

قُلْتُ وَأَنَا أَتَقَلَّبُ وَأَعُودُ لِلنَّوْمِ: «أَهْ يَا بُولَ، مِنْ الرَّائِعِ أَنْ أَكُونَ فِي الْبَيْتِ.»

لَا زَمَنِي إِحْسَاسُ الضِّيَاعِ فِي الْبَحْرِ عَلَى مَدَى الْأَيَّامِ الْقَلِيلَةِ التَّالِيَةِ. فَكُنْتُ فِي غَايَةِ الرَّعْبِ، فَكَانَ يُمَكِّنُ أَنْ أَفْقِدَ كُلَّ شَيْءٍ. فَدَارَ فِي زَهْنِي: «لَا، لَنْ أَبْجَرَ ثَانِيَةً. فَالْأَمْرُ لَا يَسْتَحِقُّ الْمُخَاطَرَةَ.»

الفصل الحادي والعشرون

العقد الأول

عَشْرُ سِنِينَ مَرَّتْ، وَكَانَ الْبَارُودُ فِي طَرِيقِهِ لِلنَّفَادِ، وَكُنْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْعُنُورِ عَلَى وَسِيلَةٍ لِتَوْفِيرِ الطَّعَامِ لَا تَشْمَلُ الصَّيْدَ. فَلَوْ اسْتَطَعْتُ الْإِمْسَاكَ بِعَدَدٍ قَلِيلٍ مِنْ صِغَارِ الْمَاعِزِ، فَيُمْكِنُنِي تَرْوِيضُهَا، وَلَوْ اسْتَطَعْتُ تَرْوِيضَهَا، سَيَكُونُ لَدَيَّ طَعَامٌ دَوْمًا؛ إِذْ سَيَكْبُرُونَ سَرِيعًا حَتَّى يُصْبِحُوا قَطِيعًا كَامِلًا مِنَ الْمَاعِزِ.

اسْتَعْرَقَ الْأَمْرُ مِنِّي بَعْضَ الْمَحَاوَلَاتِ قَبْلَ أَنْ أَتِمَّكَ مِنَ الْإِمْسَاكِ بِالْمَاعِزِ؛ فَإِذَا أَكَلَ الْمَاعِزُ الذَّرَّةَ الَّتِي بَدَأَتْ بِزَرْعِهَا، لَا تَقَعُ فِي الْفَخِّ! وَعِنْدَمَا يَعْمَلُ الْفَخُّ، لَا يَكُونُ الْمَاعِزُ بِالْجَوَارِ!

وَبَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنَ الْمَحَاوَلَةِ، عُدْتُ إِلَى الْحُفْرَةِ ذَاتَ صَبَاحٍ لِأَجْدَ الْمَاعِزِ يَمْضُغُونَ بِسَعَادَةٍ الْأَكْلَ الَّذِي تَرَكَتُهُ، فَاقْتَدْتُ الْمَاعِزَ إِلَى الْمَرْجِ الْقَرِيبِ مِنْ بَيْتِي الصَّيْفِيِّ. وَكَانَ هُنَاكَ بِالْفِعْلِ سِيَاحٌ جَمِيلٌ مِنَ الشُّجَيْرَاتِ يُحِيطُ بِالْمِنْطَقَةِ، وَكُنْتُ قَدْ أَقَمْتُهُ كَيْ لَا تَهْرُبَ الْمَاعِزُ بِمَجْرَدِ إِدْخَالِهَا إِلَى الْكَلَاءِ. وَلَمْ يُحِبَّ صِغَارُ الْمَاعِزِ الثَّلَاثَةُ التَّقْيِيدَ عَلَى الْإِطْلَاقِ، لَكِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مِنْ سَبِيلٍ آخَرَ حَتَّى أَتَأَكَّدَ مِنْ بَقَائِهَا. وَكُنْتُ أَطْعِمُهُمُ الذَّرَّةَ وَالْأَرْزَ، وَقَدْ أَحَبَّنَهُمَا كَثِيرًا حَتَّى إِنَّهَا غَالِبًا مَا كَانَتْ تَأْكُلُهَا مِنْ يَدِي مُبَاشَرَةً.

بَقِينَا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ لِفِتْرَةٍ، يَأْكُلُونَ مَا أُقَدِّمُهُ لَهُمْ، فِي حِينِ ظُلُومِ مُقَدِّدِينَ. وَعِنْدَمَا تَيَقَّنْتُ مِنْ عَدَمِ تَحْوِيلِهِمْ إِلَى مَاعِزِ بَرِّيٍّ، تَرَكَتُهُمْ يَتَحَرَّكُونَ بِحُرِّيَّةٍ فِي الْمَرْجِ. وَكَبُرَ الْقَطِيعُ بِاطْرَادِ عَلَى مَدَى السَّنِينَ الْقَلِيلَةِ التَّالِيَةِ، فَأَصْبَحَ لَدَيَّ الْآنَ حِصَادٌ وَأَشْجَارٌ فَكِهِةٌ وَمَاعِزٌ.

وَكُنْتُ فَخُورًا جِدًّا بِمَزْرَعَتِي الْمُنْتَنَامِيَّةِ؛ فَكَانَتِ الذُّرَّةُ تَنْمُو نُموًّا صِحِّيًّا، وَكَذَلِكَ الْأُرْزُ،
 كَمَا وَفَّرَ لِي الْقَطِيعُ كُلًّا مِنَ اللَّحْمِ وَاللَّبَنِ. وَبِالإِجْمَالِ، تَطَوَّرَتِ الْأَشْيَاءُ كَمَا يَجِبُ أَنْ
 تَتَطَوَّرَ. وَصَنَعْتُ الْمَزِيدَ مِنَ الْمَلَابِسِ مِنْ جِلْدِ الْمَاعِزِ. وَكَانَ بَوْلُ يُرَافِقُنِي فِي صُحْبَةِ
 حَسَنَةٍ، إِلَّا أَنَّ شَيْبِي كَبُرَ فِي السَّنِّ وَمَاتَ. وَبِالرُّغْمِ مِنْ أَنَّنِي كُنْتُ أَفْكَرُ فِي رُجُوعِي لِلْقَارِبِ
 طَوَالَ الْوَقْتِ، إِلَّا أَنَّنِي لَمْ أَفْعَلْ ذَلِكَ قَطُّ. وَمَرَّتْ سَنَوَاتٌ عَدِيدَةٌ قَبْلَ حَتَّى أَنْ أَقْتَرَبَ مِنْ
 مَكَانِ رَبِطِهِ!

بِوَسْعِكَ أَنْ تَتَخَيَّلَ مَعِي كَيْفَ كُنْتُ أَبْدُو بَعْدَ قَضَاءِ عَشْرِ سَنَوَاتٍ كَامِلَةٍ كَشَخِصٍ
 مَنْفِيٍّ! كُنْتُ أُرْتَدِي مَلَابِسَ مِنْ جِلْدِ الْمَاعِزِ وَقُبْعَةً كَبِيرَةً مُنْهَدَلَةً، وَكُنْتُ طَوِيلَ الشَّعْرِ
 وَاللُّحْيَةِ، أَمَّا جِلْدِي فَكَانَ غَالِبًا أَحْمَرَ وَمُحْتَرِقًا. لَمْ أَكُنْ أَدْرِي أَيَّ شَيْءٍ عَنْ صِيحَاتِ
 الْمُؤُوضَةِ فِي وَطْنِي، وَأَطُنُّ أَنْ هَذَا لَمْ يُشْكَلْ فَارِقًا بِالنِّسْبَةِ لِي، فَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَحَدٌ عَلَى
 الْجَزِيرَةِ لِيَرَانِي عَلَى أَيِّ حَالٍ!

الفصل الثاني والعشرون

أثر قدم

ذات يومٍ، خلالَ جَوْلَتِي الصَّبَاحِيَّةِ الطَّوِيلَةِ الْمُعْتَادَةِ، قَرَّرْتُ قَطْفَ بَعْضِ الْعِنَبِ لِعَمَلِ الرَّبِيبِ، لَكِنْ حِينَهَا انْتَابَنِي لَحْظَةٌ شَجَاعَةٌ.

وَفَكَّرْتُ: «لَعَلِّي أَذْهَبُ لِأَتَأَكَّدَ مِنْ وُجُودِ قَارِبِي هُنَاكَ، فَأَنَا أَشْعُرُ بِالشَّجَاعَةِ الْيَوْمَ.» لَذَا بَدَلًا مِنْ زِيَارَةِ بَيْتِي الصَّيْفِيِّ انْعَطَفْتُ فِي مَسِيرِي بِاتِّجَاهِ الشَّاطِئِ لِلْمَكَانِ الَّذِي رُبِّطَ فِيهِ الْقَارِبُ، وَعِنْدَمَا وَصَلْتُ هُنَاكَ، وَجَدْتُ أَثَرَ قَدَمِ إِنْسَانٍ فِي الرَّمَالِ.

تَعَجَّبْتُ وَقُلْتُ: «آه! لا! مَنْ يَكُونُ هَذَا؟ لَا بَدَّ أَنَّهُمْ أَهْلُ الْجَزِيرَةِ! لَا أُرِيدُهُمْ أَنْ يَرُونِي! وَلَا أُرِيدُهُمْ أَنْ يَعْرِفُوا بِأَمْرِي! جَرَيْتُ بِأَقْصَى سُرْعَةٍ طَوَالَ طَرِيقِ عَوْدَتِي لِلْمُحَيِّمِ. وَنَظَرْتُ خَلْفِي مَرَارًا وَتَكَرَّرًا، بَيْنَمَا أُجْرِي. مَاذَا لَوْ وَجَدُونِي؟ مَاذَا سَيَفْعَلُونَ بِي؟ وَبَعْدَ الْجُرْيِ لِمَا يُقَارِبُ السَّاعَةَ، وَصَلْتُ عَائِدًا إِلَى سِيَاحِي، وَقَفَرْتُ عَلَى سُلْمِي، وَسَحَبْتُهُ لِلدَّاخِلِ بَعْدَ صُغُودِي.

تَقَلَّبْتُ فِي فِرَاشِي طَوَالَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ؛ فَهُنَاكَ الْكَثِيرُ مِمَّا لَا أَعْرِفُهُ؛ فَهَلْ هُوَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَحَسَبُ، أَمْ أَكْثَرُ مِنْ وَاحِدٍ؟ هَلْ سَيَأْتُونَ لِي؟ وَإِذَا كَانُوا قَدْ وَجَدُوا مَرْكَبِي، فَسَيَعْرِفُونَ أَنَّي هُنَا! وَكَانَ قَلْبِي تَتَسَارَعُ دَقَاتُهُ، وَيَدَايَ تَرْتَعِشَانِ، وَخَشِيتُ مِنْ أَنْ كُلَّ شَيْءٍ بَنِيَّتُهُ كَانَ عَلَى وَشِكِّ التَّدْمِيرِ.

مَرَّتْ ثَلَاثَةٌ أَيَّامٍ كَامِلَةٌ قَبْلَ حَتَّى أَنْ أُغَادِرَ مُحَيِّمِي، وَحَتَّى حِينَهَا، لَمْ أُرِدِ الذَّهَابَ، لَكِنِّي احْتَجْتُ الْمَاءَ وَكَانَ عَلَيَّ حَلْبُ مَا عَزِي، فَاتَّخَذْتُ مَسَارًا تَسْتَرْتُ فِيهِ عَنِ الرُّؤْيَةِ

طَوَالَ الطَّرِيقِ حَتَّى بَلَغْتُ بَيْتِي الصَّيْفِيِّ، وَلَمْ أَرَ أَيَّ شَيْءٍ غَيْرِ عَادِيٍّ؛ إِذَا قَضَيْتُ هُنَاكَ
بِضْعَةَ أَيَّامٍ فِي مُحَاوَلَةٍ كَيْ أُهْدَأَ.

قُلْتُ لِنَفْسِي: «روبسون! رُبَّمَا يَكُونُ رَدُّ فِعْلِكَ مُبَالِغًا فِيهِ، فَقَدْ يَكُونُ هَذَا الْأَثَرُ هُوَ
أَثَرُ قَدَمِي أَنَا، وَأَنَا لَمْ أَلْحِظْ أَنَّنِي تَرَكْتُهُ.» فَاسْتَجَمَعْتُ شَجَاعَتِي كُلَّهَا وَسِرْتُ عَائِدًا إِلَى
الشَّاطِئِ لِأَلْقِي نَظْرَةً أُخْرَى، وَكَانَ الْأَثَرُ لَمْ يَزَلْ هُنَاكَ!

وَعِنْدَمَا وَضَعْتُ قَدَمِي بِجَانِبِ أَثَرِ الْقَدَمِ وَجَدْتُ أَنَّ أَثَرَ الْقَدَمِ ضَعْفٌ حَجْمِ قَدَمِي
تَقْرِيْبًا! فَقُلْتُ: «هَذَا غَيْرُ مَعْقُولٍ!» وَبَدَأْتُ أَرْتَعْشُ وَأَتَصَبَّبُ عَرَقًا فِي ذَاتِ الْوَقْتِ. وَاسْتَعْرَقْتُ
بِضْعِ دَقَائِقَ لِكَيْ أُسْتَجْمَعَ أَفْكَارِي، ثُمَّ جَرَيْتُ إِلَى الْمَنْزِلِ بِأَقْصَى سُرْعَتِي.

قَضَيْتُ لَيْلَةً أُخْرَى مُورِّقًا، أَفْكَرُّ فِي أَثَرِ الْقَدَمِ تِلْكَ. وَفِي نَوْبَةِ جُنُونٍ قَرَّرْتُ اقْتِلَاعَ كُلِّ
مَحَاصِلِي وَإِطْلَاقَ سَرَّاحِ مَا عِزِي؛ وَبِهَذَا لَنْ يَعْرِفَ أَحَدٌ أَنَّنِي كُنْتُ هُنَا. وَطَلَعَ الصُّبْحُ،
وَكَانَ الْيَوْمُ صَافِيًا وَمُشْرِقًا، وَوَجَدْتُ مَزْرَعَتِي مَا زَالَتْ بِأَكْمَلِهَا كَمَا هِيَ، وَعَرَفْتُ حِينَهَا
أَنَّهُ لَا دَاعِيَ لِتَدْمِيرِ كُلِّ شَيْءٍ بَنِيْنُهُ، وَأَنَّي فَقَطْ فِي حَاجَةٍ لِأَنْ أَكُونَ حَرِيصًا.

مَرَّتْ سَنَتَانِ لَمْ أَرَ فِيهِمَا أَحَدًا، وَلَمْ يَظْهَرْ مَزِيدٌ مِنْ أَثَارِ الْأَقْدَامِ عَلَى الرَّمْلِ، وَلَمْ يَأْتِ
أَحَدٌ وَيُبَاغِتْنِي فِي اللَّيْلِ، وَاسْتَمَرَّتِ الْحَيَاةُ كَالْمُعْتَادِ.

الفصل الثالث والعشرون

لَا دُخَانَ وَلَا نَارٍ

مَرَّتْ سِنُونَ وَسِنُونَ، وَلَمْ يَتَغَيَّرِ الْكَثِيرُ عَلَى جَزِيرَتِي؛ فَلَالْمَطَارُ تَجَلُّ وَتَذَهَبُ، وَالشَّمْسُ تُشْرِقُ، وَاسْتَمَرَّتْ أَيَّامِي كَمَا انْقَضَتْ عَلَى مَدَى الْكَثِيرِ وَالْكَثِيرِ مِنَ الشُّهُورِ، وَأَصْبَحْتُ أَهْوَى جَوْلَاتِي الصَّبَاحِيَّةَ الْبَاكِرَةَ، وَلَا يُسْعِدُنِي شَيْءٌ أَكْثَرَ مِنْ نَهَابِي إِلَى مَنْزِلِي الصَّيْفِيِّ، لِأَرَى مَا عِزِّي، وَالْقِي نَظْرَةً عَلَى مَحَاصِيلِي.

وَبِنَفْسِ سُرْعَةٍ هُطُولِ الْمَطَرِ، تَحَوَّلَ كُلُّ شَيْءٍ فِي لَحْظَةٍ؛ فَكُنْتُ أَسِيرُ نَحْوَ الْجَانِبِ الْآخِرِ مِنَ الْجَزِيرَةِ ذَاتِ صَبَاحٍ عِنْدَمَا رَأَيْتُهُمْ؛ أَهْلَ الْجَزِيرَةِ! وَكَانَ هُنَاكَ أَعْدَادٌ هَائِلَةٌ مِنْ زَوَارِقِهِمْ عَلَى الشَّاطِئِ، وَكَانُوا مُنْشَغِلِينَ بِإِشْعَالِ نَارٍ عَظِيمَةٍ. اخْتَبَأْتُ وَتَابَعْتُهُمْ، وَتَسَاءَلْتُ مَاذَا أَفْعَلُ. وَبَدَلًا مِنَ الْهَرُوبِ عَائِدًا إِلَى الْمَحِيْمِ، جَلَسْتُ وَفَكَّرْتُ فِي الْأَمْرِ بِعَقْلَانِيَّةٍ.

«لَقَدْ ظَلَلْتُ هُنَا مَا يُقَارِبُ الْعِشْرِينَ عَامًا، وَهُمْ لَمْ يَعْنُرُوا عَلَيَّ قَطُّ، بَلْ لَمْ يَرُونِي. فَإِذَا بَقِيَتْ مُخْتَبِئًا، فَرُبَّمَا لَنْ يَجِدُونِي أَبَدًا.»

انصرفت خلسةً مِنَ الشَّاطِئِ وَذَهَبْتُ لِلْبَيْتِ. وَأَرَدْتُ أَنْ أَكْمَلَ حَيَاتِي، لَكِنِّي عَرَفْتُ أَنَّ الْأُمُورَ لَنْ تَظَلَّ أَبَدًا عَلَى حَالِهَا.

اشْتَمَلْتُ طُقُوسِي الصَّبَاحِيَّةَ بِدَايَةٍ مِنْ هَذَا الْيَوْمِ فَصَاعِدًا عَلَى اتِّخَاذِ إِجْرَاءَاتٍ أَمْنِيَّةٍ، فَكُنْتُ أَصْعُدُ إِلَى قِمَّةِ التَّلِّ الْعَالِيِّ وَمَعِي مِنْظَارِي الْقَدِيمَ لِأَنْظُرَ فِي الْأَرْجَاءِ. وَبَدَلًا مِنْ تَرَقُّبِ السُّفْنِ، كُنْتُ أَبْحَثُ عَنِ الزَّوَارِقِ. وَمَرَّتْ أَسَابِيعُ ثَمَّ شُهُورٌ، وَتَوَصَّلْتُ إِلَى أَنَّ جَزِيرَتِي هِيَ حَتْمًا بُقْعَةٌ لَا يَقْصِدُونَهَا غَالِبًا، وَرُبَّمَا تَمُرُّ سِنَوَاتٌ أُخْرَى قَبْلَ أَنْ يَرْجِعُوا، وَرُبَّمَا لَا يَرْجِعُونَ أَبَدًا.

وَكَانَ أَهْمٌ مَا شَغَلَ بَالِي أَنْ تَكُونَ حَيَاتِي عَلَى الْجَزِيرَةِ مُتَوَارِيَةً عَنِ الْأَنْظَارِ قَدْرَ
الْإِمْكَانِ. وَأكْبَرُ مُشْكَلَةٍ كَانَتْ عَلَيَّ حُلُّهَا هِيَ كَيْفِيَّةُ إِشْعَالِ نَارٍ بِدُونِ دُخَانٍ. فَلَمْ أَكُنْ أُرِيدُ
إِشْعَالَ النَّارِ فِي كَهْفِ التَّخْزِينِ البَارِدِ؛ فَهَذَا كَفِيلٌ بِأَنْ يُظْهَرَ مُخَيَّمِي بِأَكْمَلِهِ لِلْعِيَانِ.
لَا، عَلَيَّ أَنْ أَجِدَ كَهْفًا بَعِيدًا عَنْ مُخَيَّمِي، فَالدُّخَانُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ الدَّلِيلُ الْوَحِيدُ عَلَى
وُجُودِ إِنْسَانٍ آخَرَ يَعِيشُ عَلَى الْجَزِيرَةِ، وَبِدُونِ الدُّخَانِ رُبَّمَا لَا يَكْتَشِفُ أَهْلُ الْجَزِيرَةِ أَبَدًا
مُخَيَّمِي أَوْ مَنْزِلِي الصَّيْفِيِّ.

اسْتَعْرَقْتُ بِضَعَةِ أَيَّامٍ لِأَجْدِ الْمَكَانِ الْمُنَاسِبِ لِإِشْعَالِ النَّارِ. فَكَانَ الْكَهْفُ كَبِيرًا
بِالْفِعْلِ، وَحِينَ سِرْتُ أَكْثَرَ بِدَاخِلِهِ، تَبَيَّنَ لِي أَنِّي أَسْتَطِيعُ الْوُقُوفَ فِي مُنْتَصَفِهِ بِيَسْرٍ.
بَعْدَ ذَلِكَ، حَدَّثَ مَا أَخَافَنِي وَأَرْعَدَ فَرَائِصِي! فَبَيْنَمَا كُنْتُ أَسْتَكْشِفُ الْكَهْفَ، أَنْعَطَفْتُ
حَوْلَ زَاوِيَةٍ وَإِنْ بِي وَجْهًا لَوَجْهِ أُمَامَ عَيْنَيْنِ بَرَّاقَتَيْنِ تُحَدِّقَانِ فِيَّ. يَا لَهَا مِنْ صَدْمَةٍ!
وَبَعْدَمَا التَّقَطُّتْ نَفْسِي، نَظَرْتُ مِنْ قَرِيبٍ لِأَجْدِ نَيْسًا عَجُوزًا وَمَرِيضًا رَاقِدًا فَحَسَبْتُ، لَا
يُرِيدُ التَّحَرُّكَ وَلَمْ أَرْغَمْهُ عَلَيْهِ، فَقَطُّ أَعْطَيْتُهُ شَرْبَةً مِنَ الْمَاءِ وَتَرَكْتُهُ لِحَالِهِ.

عَدْتُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي إِلَى الْكَهْفِ وَمَعِيَ بَعْضُ الْمَعْدَّاتِ: شَمُوعٌ وَغَيْرُهَا مِنَ الْأَشْيَاءِ
الْآخَرَى. وَكَانَ فِي الْكَهْفِ دِهْلِيْزٌ طَوِيلٌ وَضَيْقٌ يَقُودُ إِلَى حُجْرَةٍ جَمِيلَةٍ، تَلْمَعُ فِي الضِّيِّ
بِأَضْوَاءٍ بَهِيَّةٍ مُتَلَالِيَةٍ.

وَفَكَّرْتُ: «رُبَّمَا يَكُونُ مَاسًا!» لَكِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا هُوَ وَقْتُ التَّفَكُّرِ فِي التَّنْقِيْبِ!
وَلِأَنَّ الْكَهْفَ كَانَ آمِنًا وَجَافًا، قَرَّرْتُ تَخْزِينَ مَا تَبَقِيَ مِنْ بَارُودِي هُنَاكَ، مَعَ بِنَادِي
الزَّائِدَةِ، كَمَا طَهَوْتُ مُعْظَمَ طَعَامِي بِالدَّخْلِ، حَيْثُ لَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ أَنْ يَرَى الدُّخَانَ
الْمُتَصَاعِدَ مِنَ النَّارِ.

تَحَطُّمُ سَفِينَةِ أُخْرَى

أَصْبَحَ الْآنَ مَنْزِلًايَ عَلَى الْجَزِيرَةِ مُؤْمِنِينَ، وَكَهْفُ الطَّهْيِ عَلَى خَيْرِ مَا يُرَامُ، وَمُرَاقِبَاتِي
الْيَوْمِيَّةُ رُوتِيًّا حَسَنًا، فَسَعَرْتُ بِالْأَمَانِ، لَكِنِّي ظَلَلْتُ مُنْشَغَلًا كَيْ أَبْعَدَ تَفْكِيرِي عَنْ أَهْلِ
الْجَزِيرَةِ.

وَفِي لَيْلَةٍ مُرْعَبَةٍ، سَمِعْتُ صَوْتَ إِطْلَاقِ مِدْفَعٍ مِنْ عَلَى بُعْدٍ، فَاِنْطَلَقْتُ إِلَى قِمَّةِ التَّلِّ
الْعَالِي وَحَاوَلْتُ أَنْ أَرَى مَاذَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ، لَكِنَّ الظَّلَامَ كَانَ دَامِسًا.
أَسْرَرْتُ لِلَّيْلِ: «لَا بُدَّ أَنَّهَا سَفِينَةٌ فِي حَطَرٍ! يُمَكِّنُهُمْ أَنْ يُنْقِذُونِي!»
أَشَعَلْتُ نَارًا عَظِيمَةً بِالرُّغْمِ مِنْ مَعْرِفَتِي أَنَّ فِعْلَ ذَلِكَ أَمْرٌ حَاطِرٌ.

وَبِمَتَمَّتْ لِنَفْسِي بَيْنَمَا كُنْتُ أَتَسَلَّقُ بِسُرْعَةٍ لِأَبْقِي النَّارَ مُسْتَعِرَةً: «لَا بُدَّ أَنْ يَرَوْهَا! لَا
بُدَّ أَنْ يَرَوْهَا!» وَكَانَتِ الرِّيَّاحُ شَدِيدَةً مِمَّا جَعَلَ السَّيْطَرَةَ عَلَى النَّارِ أَمْرًا صَعْبًا. وَتَقْرِيْبًا
بَعْدَ لَحْظَاتٍ، سَمِعْتُ طَلْقَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ مِنَ الْمِدْفَعِ، ثُمَّ بَضِعَ طَلْقَاتٍ مِنَ الْبِنَادِقِ، فَلَا بُدَّ
أَنَّهُمْ رَأَوْا إِشَارَتِي!

حَلَّ الْفَجْرُ سَرِيعًا، وَبَدَأَ الضَّبَابُ يَنْقَشِعُ بَيْنَمَا أَدْفَأَتِ الشَّمْسُ الْجَزِيرَةَ. وَاسْتَطَعْتُ
بِصُعُوبَةٍ تَمَيِّزَ وُجُودِ سَفِينَةٍ مِنْ عَلَى بُعْدٍ، فَرَكَضْتُ طَوَالَ الطَّرِيقِ بِاتِّجَاهِ النَّاحِيَةِ
الْجَنُوبِيَّةِ مِنَ الْجَزِيرَةِ، وَنَزَلْتُ عَلَى رُكْبَتَيَّ بِمَجْرَدِ وُصُولِي لِلشَّاطِئِ. حُطَامٌ! أَوَاهُ! هُوَلاءِ
الرِّجَالِ الْمَسَاكِينِ؛ تَحَطَّمَتِ سَفِينَتُهُمْ عَلَى نَفْسِ الصُّخُورِ الَّتِي كَادَتْ تُنْهِي حَيَاتِي مُنْذُ
سَنَوَاتٍ كَثِيرَةٍ مَاضِيَةٍ. وَضَاقَ صَدْرِي حِينَ عَرَفْتُ اسْتِحَالَةَ وُجُودِ أَحْيَاءٍ. فَهَمُّ أَرْسَلُوا
الإِشَارَةَ وَلَمْ تُنْفِذْهُمْ أَيُّ سَفِينَةٍ. وَفِي هَذَا الظَّلَامِ، بِالتَّأَكِيدِ لَمْ يَرَوْا جَزِيرَتِي.

وَأَنْتَبَهْتُ: «أَه لَوْ نَجَا وَاحِدٌ مِنْهُمْ فَقَطْ، وَاحِدٌ فَقَطْ!» شَعَرْتُ بِالْوَحْدَةِ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ
بِالذَّاتِ أَكْثَرَ مِمَّا شَعَرْتُ بِهَا طَوَالَ مَا يَزِيدُ عَنِ الْعِشْرِينَ عَامًا الَّتِي قَضَيْتَهَا بِمُفْرَدِي.
وَالِاخْتِيَارُ الْوَحِيدِ الَّذِي كَانَ عَلَيَّ اتِّخَاذُهُ وَقَتْنِدِ هُوَ مَا إِذَا كُنْتُ سَأَسْتَحْدِمُ قَارِبِي
وَمَعْرِفَةُ إِمْكَانِيَّةِ جَمْعِ الْمُؤْنِ مِنَ السَّفِينَةِ. وَفِي النَّهَائِيَةِ، قَرَّرْتُ أَنَّ الْأَمْرَ يَسْتَحِقُّ الْمَخَاطَرَةَ.
لَكِنِّي انْتَبَهْتُ حَتَّى الصَّبَاحِ التَّالِي، عِنْدَمَا كَانَ الْمُدُّ مُنْخَفِضًا، فَلَمْ أَكُنْ أُرِيدُ أَنْ يَجْرِفَنِي
التِّيَّارُ لِذَاخِلِ الْبَحْرِ.

مَا إِنْ اقْتَرَبْتُ مِنَ الْقَارِبِ، سَمِعْتُ كَلْبًا يَنْبُحُ، فَنَادَيْتُ عَلَيْهِ وَفَقَرَ مُبَاشَرَةً فِي قَارِبِي،
وَكَانَ بِلَا شَكِّ رَفِيقًا صَغِيرًا مُشَاكِسًا. وَوَجَدْتُ أَنَّ الْمِيَاهَ أَتَلَفَتِ الْكَثِيرَ مِنْ حَمُولَةِ السَّفِينَةِ،
لَكِنِّي تَمَكَّنْتُ مِنْ أَخْذِ بَعْضِ الْقُدُورِ النَّحَاسِيَّةِ وَبَعْضِ صُنَادِيقِ الْبَحَّارَةِ وَبَعْضِ بَرَامِيلِ
الشَّرَابِ وَبَعْضِ الْبَارُودِ. وَحَيْثُ إِنَّ السَّفِينَةَ كَانَتْ غَيْرَ مُسْتَقَرَّةٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ، عَمِلْتُ بِسُرْعَةٍ
وَحَزَمْتُ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى قَارِبِي الصَّغِيرِ.

وَتَطَلَّبَ الْأَمْرُ الْقِيَامَ بِالْعَدِيدِ مِنَ الرَّحَلَاتِ إِلَى السَّفِينَةِ لِنَقْلِ الْحَمُولَةِ إِلَى مُخَيَّمِي. يَا
لِلذُّرُواتِ الَّتِي وَجَدْتُهَا عِنْدَمَا فَتَحْتُ أَحْيَارَ الصَّنَادِيقِ، فَكَانَتْ مَمْلُوءَةً بِكُنُوزٍ غَيْرِ عَادِيَّةٍ!
فَاحْتَوَى أَحَدُهَا عَلَى عُلْبَةٍ جَمِيلَةٍ مِنَ الزُّجَاجَاتِ الْمَمْلُوءَةِ بِأَشْرَبَةِ ذَاتِ نَكْهَاتٍ، وَكَانَتْ
لِذِيذَةٍ بِالْفِعْلِ. وَكَانَ هُنَاكَ صُنْدُوقٌ آخَرٌ مَمْلُوءٌ بِالْحَلْوَى، وَأَيْضًا وَجَدْتُ فِي صُنْدُوقٍ آخَرَ
فُصَّانًا جَدِيدَةً، وَاحْتَوَى آخَرَ صُنْدُوقٍ فَتَحْتُهُ عَلَى ثَلَاثِ أَكْيَاسٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الدَّهَبِ، وَجَدْتُهَا
بِجَوَارِ زُوجَيْنِ مِنَ الْأَحْدِيثَةِ! حَزَنْتُ الْكَثِيرَ مِنْ هَذِهِ الذُّرُواتِ الْجَدِيدَةِ فِي كَهْفِي، كَيْ أَطْمَئِنَّ
أَنَّهَا فِي مَأْمِنٍ.

لَمْ تَسْتَمِرَّ إِثَارَتِي بِهَذِهِ الْإِكْتِشَافَاتِ لِأَكْثَرِ مِنْ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ، إِذْ أَكَلْتُ كُلَّ الْحَلْوَى
وَشَرِبْتُ كُلَّ الْمَشْرُوبَاتِ الْمُسْكِرَةِ، وَعَادَتِ حَيَاتِي كَمَا كَانَتْ، وَعُدْتُ لِاتَّفَقْدِ الْمَكَانِ مِنْ
أَعْلَى كُلِّ صَبَاحٍ. لَكِنْ شَيْئًا اخْتَلَفَ الْآنَ، إِذْ لَدَيْ كَلْبِي الْجَدِيدِ لِيرَافِقَنِي، وَأَسْمَيْتُهُ سَكَرَافِي،
وَكَانَ رَفِيقًا صَغِيرًا وَبَارِعًا.

وَبَعْدَ تَحَطُّمِ السَّفِينَةِ، سُرِعَانَ مَا اخْتَلَفْتُ بِالْعَامِ الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ لِنُزُولِي عَلَى
الْجَزِيرَةِ. وَمَرَّتْ عَلَيَّ السَّاعَاتُ فِي هَذَا الْيَوْمِ وَأَنَا جَالِسٌ أَفَكِّرُ فِي كُلِّ مَا حَدَثَ. كَانَتْ سَنَوَاتٌ
سَعِيدَةٌ مِنَ الْعَمَلِ الشَّاقِّ وَالنَّجَاحَاتِ الْكَثِيرَةِ. لَكِنِّي الْآنَ أَقْضِي الْكَثِيرَ مِنَ الْوَقْتِ قَلِقًا

تَحَطُّمْ سَفِينَةَ أُخْرَى

مَنْ أَنْ يَكْتَشِفَ أَهْلُ الْجَزِيرَةِ وَجُودِي، مِمَّا صَعَبَ عَلَيَّ الْإِسْتِمْتَاعَ بِحَيَاتِي. مَرَّ احْتِفَالِي
السَّنَوِيِّ وَأَقْنَعْتُ نَفْسِي أَنَّهُ قَدْ آنَ وَقْتُ الْفِرَارِ. لَكِنْ كَيْفَ لِي أَنْ أَتْرِكَ الْجَزِيرَةَ؟
قَضَيْتُ الْمَوْسِمَ الْمُمْطِرَ بِأَكْمَلِهِ هَذَا الْعَامَ وَأَنَا أَفْكَرُ وَأُحْطِطُّ لِلْهُرُوبِ. وَكَانَ أَهْلُ
الْجَزِيرَةِ هُمْ مَنْ سَيُرْشِدُونَنِي، فَلَوْ اسْتَطَعْتُ إِقَامَةَ سَلَامٍ مَعَهُمْ، سَيُمْكِنُهُمْ إِطْلَاعِي عَلَى
سَبِيلِ الْخُرُوجِ مِنَ الْجَزِيرَةِ.

هَلْ سَيَنْجِحُ الْأَمْرُ؟ هَلْ أَسْتَطِيعُ إِقَامَةَ صَدَاقَاتٍ مَعَهُمْ؟

روبسون يُقابل «جمعة»

مَرَّتْ شُهُورٌ كَثِيرَةٌ قَبْلَ أَنْ يُجِيبَ الْقَدْرَ عَنْ أَسْئَلَتِي؛ فَذَاتَ صَبَاحٍ، لَمْ يَطْلُ مُكْتَبِي فِي الْخَارِجِ قَبْلَ أَنْ أَكْتَشِفَ الزَّوَارِقَ. لَقَدْ عَادَ أَهْلُ الْجَزِيرَةِ! وَكَانُوا يُخَيِّمُونَ فِي ذَاتِ الْمَكَانِ كَمَا فَعَلُوا مُنْذُ بَضْعِ سِنِينَ. اخْتَبَأْتُ تَارَةً أُخْرَى مِنْهُمْ وَشَاهَدْتُهُمْ مِنْ عَلَى بُعْدٍ.

وَكَانَ مَعَهُمْ سَجِينَانِ مُسْكِينَانِ مُقَيَّدَانِ بِحَبَالٍ مَصْنُوعَةٍ مِنْ نَبَاتِ الْكُرْمَةِ، وَبَدَأَ عَلَيْهِمَا الرُّعْبُ الشَّدِيدُ. أَدْرَكْتُ حِينَهَا أَنَّهُ لَا أَمَلَ فِي إِقَامَةِ صَدَاقَاتٍ مَعَ هَؤُلَاءِ الرَّجَالِ الْمُخَيِّفِينَ. وَكَانَ هُنَاكَ عَلَى الْأَقْلِّ ثَلَاثُونَ رَجُلًا مِنْهُمْ! وَكَانُوا يُصْدِرُونَ الْكَثِيرَ مِنَ الْأَصْوَاتِ الْغَرِيبَةِ. وَقَامَ رَجُلٌ ضَخْمُ الْجَبْتِ بِطَرْحِ أَحَدِ السَّجِينَيْنِ أَرْضًا بِيَدَيْهِ. وَبَعْدَمَا رَأَهُ رَفِيقُهُ وَهُوَ يَتَلَقَّى الضَّرْبَ، انْتَهَزَ فُرْصَةَ عُمُرِهِ وَأَسْرَعَ مُبْتَعِدًا. كَانَ يَرْكُضُ أَسْرَعَ مِنْ أَيِّ رَجُلٍ رَأَيْتُهُ يَرْكُضُ مِنْ قَبْلُ فِي حَيَاتِي! وَقَبْلَ أَنْ أُدْرِكَ مَا يَحْدُثُ، حَوَّلَ الرَّجُلُ اتِّجَاهَهُ رَاكِضًا نَحْوِي.

كَادَ قَلْبِي يَتَوَقَّفُ، وَدَارَ فِي عَقْلِي: «هَذِهِ هِيَ النَّهَايَةُ، سَوْفَ يَجِدُونَنِي الْآنَ، وَسَيُؤْذُونَنِي.»

طَارَدَ رَجُلَانِ آخَرَانِ السَّجِينِ، وَاقْتَرَبُوا كُلُّهُمُ مِنِّي أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ. وَفِي غَمْضَةِ عَيْنٍ، حَسَمْتُ أَمْرِي بِمُسَاعَدَةِ الرَّجُلِ الْمُسْكِينِ. وَتَرَبَّصْتُ فِي الْأَجْمَةِ وَأَنْتَظَرْتُ إِلَى أَنْ جَاءَتِ اللَّحْظَةُ الْمُنَاسِبَةُ. جَرَى السَّجِينُ بِجَوَارِي، ثُمَّ تَقَدَّمْتُ بِخَفَّةٍ وَأَوْقَعْتُ أَحَدَ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ يُطَارِدَانِهِ، بَيْنَمَا حَاوَلَ الرَّجُلُ الثَّانِي الْإِمْسَاكَ بِي، لَكِنِّي اسْتَطَعْتُ أَنْ أَفْقِدَهُ الْوَعْيَ. وَاسْتَدَارَ السَّجِينُ وَرَأَنِي هُنَاكَ.

قُلْتُ لَهُ، مَعَ عِلْمِي بِأَنَّهُ رُبَّمَا لَا يَفْهَمُنِي: «لَا تَقْلُقْ! سَوْفَ أَسَاعِدُكَ!»
تَرَدَّدَ الرَّجُلُ لِذَقِيقَةِ، ثُمَّ هَرَعَ عَائِدًا إِلَيَّ. فَقُلْتُ لَهُ: «سَاعِدْنِي كَيْ أَقِيدَهُمَا، كَيْ لَا
يَقْدِرَا عَلَى إِيْدَائِكَ بَعْدَ الْآنِ.» فِي الْبِدَايَةِ لَمْ يَفْهَمْ، لَكِنْ بَعْدَمَا فَكَّكْتُ قَيْودَ مَعْصَمِيهِ مِنَ
الْحَبَالِ وَأَشْرْتُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، قَيْدَانَهُمَا مُسْتَحْدِمِينَ نَفْسَ نَوْعِ الْحَبَالِ، وَبِهَذَا لَنْ يَتَمَكَّنَا
مِنَ الْحَرَكَةِ لِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ جِدًّا!

قُلْتُ لَهُ: «هَيَّا! عَلَيْنَا الْخُرُوجُ مِنْ هُنَا.»
أَحْضَرْتُ الرَّجُلَ إِلَى كَهْفِي. وَبَعْدَمَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَزْتَاخَ أَحْيَرًا، أَعْطَيْتُهُ بَعْضَ الطَّعَامِ
وَالْمَاءِ؛ فَكَانَ فِي غَايَةِ الْعَطَشِ وَالْجُوعِ.

وَسَأَلْتُهُ: «مَا اسْمُكَ؟»
فَأَجَابَنِي بِلُغَتِهِ.

قُلْتُ لَهُ: «سَوْفَ أَدْعُوكَ «جمعة»، لِأَنِّي أَنْقَذْتُكَ فِي هَذَا الْيَوْمِ، يَوْمِ الْجُمُعَةِ!»
ابْتَسَمَ الرَّجُلُ لِي وَأَوْمَأَ بِرَأْسِهِ. وَأَشْرْتُ إِلَى صَدْرِي قَائِلًا: «اسْمِي رُوبِنْسُونُ، رُوبِنْسُونُ

كروزو.»

وَقَبَّلَ أَنْ يَتَمَكَّنَ مِنْ مَنَعِ نَفْسِهِ، أَطْلَقَ جُمُعَةً تَنَاقُوبًا كَبِيرًا وَهَائِلًا، فَضَحِكْتُ عَالِيًا
وَقُلْتُ لَهُ: «لَا بَدَّ أَنْكَ مُتَعَبٌ جِدًّا.» وَأَرَيْتُهُ حَصِيرَةَ نَوْمٍ مِنَ الْقَشِّ كُنْتُ أَتْرَكُهَا فِي الْكَهْفِ
وَقُلْتُ لَهُ: «وَالْآنَ، لِمَ لَا تَغْفُو قَلِيلًا؟»

ابْتَسَمَ لِي جُمُعَةً، مُدْرِكًا تَمَامًا مَا قَصَدْتُهُ، فَسَارَ إِلَى الْحَصِيرَةِ وَعَرِقَ فِي النَّوْمِ مُبَاشَرَةً.
وَجَلَسْتُ هُنَاكَ أَشَاهِدُهُ وَحَسَبُ لِبَعْضِ الْوَقْتِ، فَبِالرُّغْمِ مِنْ مَعْرِفَتِي مِنْ عَدَمِ فَهْمِي لِي
وَعَدَمِ فَهْمِي لَهُ، إِلَّا أَنَّهُ مِنَ الرَّائِعِ أَنْ يَكُونَ مَعَكَ شَخْصٌ لِيَتَحَدَّثَ إِلَيْهِ. وَكَانَ جُمُعَةً
رَجُلًا طَوِيلَ الْقَامَةِ لِلْغَايَةِ، وَكَانَ لَهُ شَعْرٌ طَوِيلٌ وَدَاكِنٌ يَنْسَابُ عَلَى ظَهْرِهِ، وَكَانَ يَرْتَدِي
مَلَابِسَ مِنَ الْجِلْدِ هُوَ الْآخَرُ، لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَرْتَدِي الْكَثِيرَ مِثْلِي.

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي، رَجَعْتُ إِلَى الْكَهْفِ الْمَخْصَصِ لِلطَّهْرِ فَوَجَدْتُ جُمُعَةً مَا زَالَ هُنَاكَ.
وَفِي الْحَقِيقَةِ، وَعَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ الْقَلِيلَةِ التَّالِيَةِ، فُوجِئْتُ لِمَعْرِفَةِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَرِغَبُ فِي الْعُودَةِ
لِوَطْنِهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ. عَمِلْنَا بِحِدِّ لَأَكْثَرَ مِنْ شَهْرَيْنِ جُنُبًا لِحَبْنِ، وَتَوَافَقْنَا عَلَى نَحْوِ جَيِّدٍ،
حَتَّى وَلَوْ لَمْ نَكُنْ نَتَحَدَّثُ نَفْسَ اللُّغَةِ.

الحياة مع صديق

قَضَيْتُ أَنَا وَجَمْعَةُ الثَّلَاثِ سَنَوَاتِ التَّالِيَةِ نَحْيًا وَنَعْمَلُ مَعًا، وَاتَّبَعْنَا رُوتَيْنَا مُرِيحًا جَدًّا؛
فَفِي أَوْقَاتِ الصَّبَاحِ نَسْتَطْلِعُ الْجَزِيرَةَ لِلتَّكْثُرِ أَنَّ أَهْلَهَا لَمْ يَعُودُوا، وَفِي أَوْقَاتِ الظُّهَيْرَةِ،
نَعْمَلُ فِي الْمَرْعَةِ أَوْ نَعْتَنِي بِالْمَحَاصِلِ أَوْ نَحْلِبُ الْمَاعِزَ أَوْ نَقْطِفُ الْفَاكِهَةَ. أَمَّا فِي أَوْقَاتِ
الْمَسَاءِ، فَنُعِدُّ عِشَاءَنَا وَأَعْلَمُ جَمْعَةَ اللُّغَةِ الَّتِي أَحَدَتْهَا. وَوَثِقْتُ فِيهِ ثِقَةً عَمِيَاءَ.

فَهَا هُوَ الْقَدْرُ قَدْ اسْتَجَابَ لِابْتِهَالَاتِي، وَلَمْ أَعُدْ وَحِيدًا. فَوُجِدُ جَمْعَةَ مَعِي فَحَسِبُ
كَانَ كَفِيلاً بِالتَّخْفِيفِ مِنْ حَوْفِي مِنْ أَنْ يَجِدَنِي أَحَدٌ. وَبِالتَّكْثِيرِ وَجُودَنَا نَحْنُ الْإِثْنَيْنِ مَعًا
كَانَ يُعَزِّزُ مِنْ فُرْصَتِنَا لِحِمَايَةِ أَنْفُسِنَا مِنْ أَهْلِ الْجَزِيرَةِ، مِمَّا جَعَلَنِي أَيْضًا أَفْكَرُ أَكْثَرَ
وَأَكْثَرَ فِي الْهُرُوبِ. سَأَلْتُ جَمْعَةَ أَسْئَلَةً كَثِيرَةً خِلَالَ هَذَا الْوَقْتِ: أَيْنَ نَحْنُ؟ وَمَنْ هُمْ قَوْمُهُ؟
وَمَا الْجُزُرُ الْقَرِيبَةُ مِنَّا؟ وَهَلْ يَشْتَأِقُ إِلَى عَائِلَتِهِ؟ وَهَلْ تَبَحُّثُ عَائِلَتُهُ عَنْهُ؟
وَفِي الْأَغْلَبِ، كَانَتْ إِجَابَتُهُ عَلَيَّ فِي ابْتِسَامَةٍ وَإِيمَاءَةٍ، حَتَّى تَعْلَمَ لُغَتِي وَاسْتَطَاعَ
إِجَابَتِي.

فَسَأَلْتُهُ: «كَيْفَ لَا تُرِيدُ الذَّهَابَ لَوْطَنِكَ، لِجَزِيرَتِكَ؟»

- «مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ، تَرَكْتُ مَنَزِلِي، فَرَعَبْتُ أَنْ أَرَى الْعَالَمَ. لَكِنَّ أَبِي غَضِبَ مِنِّي بِشِدَّةٍ،
وَلَمْ يَرِدْ لِي الذَّهَابَ، وَكُنْتُ فِي طَرِيقِي لِأَحْظَى بِرِحْلَةٍ بَحْرِيَّةٍ عَظِيمَةٍ حِينَ أَمْسَكَ بِي أَهْلُ
الْجَزِيرَةِ، ثُمَّ أَنْقَذَتْ أَنْتَ حَيَاتِي.»

- «هَلْ تَفْتَقِدُ وَالِدَكَ؟»

فَكَرَّ جَمْعَةُ لِذَقِيقَةٍ ثُمَّ قَالَ: «نَعَمْ، أَفْتَقِدُهُ بِالْفِعْلِ، وَأَفْتَقِدُ جَزِيرَتِي. لَكِنِّي أُحِبُّ
الْوَضْعَ هَا هُنَا، وَأُحِبُّ الْعَيْشَ هَا هُنَا، وَأُحِبُّ الْعَمَلَ فِي الْمَرْعَةِ. فَالْأَمْرُ مُخْتَلِفٌ جَدًّا.»

ابْتَسَمْتُ لَهُ قَائِلًا: «إِذَنْ فَأَنْتَ تُرِيدُ الْبَقَاءَ؟»
وَانْفَعَرَ فَمَهُ عَنِ ابْتِسَامَةِ عَرِيضَةٍ وَقَالَ: «بِالطَّبْعِ أَوْدُ ذَلِكَ! فَهَذِهِ فُرْصَةٌ الْعُمْرِ، أَنْ
أَحْطَى بِهَذِهِ الْمُعَامَرَةِ!»

قُلْتُ لَهُ: «التَّشَابُهَ بَيْنَنَا كَبِيرٌ، فَهَكَذَا انْتَهَى بِي الْمَطَافُ عَلَى الْجَزِيرَةِ أَنَا الْآخِرِ، فَقَدْ
تَرَكْتُ وَطَنِي لِأَحْطَى بِمُعَامَرَةِ كُبْرَى؛ وَاسْتَقَرَّرْتُ هُنَا مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ عَامًا.»
فَضَيْتُ سَاعَاتٍ أَحْكِي فِيهَا لجمعة عَنْ حَيَاتِي قَبْلَ الْجَزِيرَةِ، وَعَنْ نَشْأَتِي فِي إِنْجِلْتْرَا،
وَعَنْ مَزْرَعَتِي فِي الْبِرَازِيلِ. وَأَخْبَرْتَنِي هُوَ عَنْ حَيَاتِهِ، وَعَنْ عَائِلَتِهِ، وَعَنْ كَيْفَ كَانَتْ الْحَيَاةُ
عَلَى الْجَزِيرَةِ الَّتِي قَدِمَ مِنْهَا. وَظَهَرَتْ بَيْنَنَا أَشْيَاءٌ مُشْتَرِكَةٌ كَثِيرَةٌ، بِالرُّغْمِ مِنْ أَنْ مَسْقَطُ
رَأْسِنَا فِي أَمَاكِنَ شَدِيدَةِ الْاِخْتِلَافِ. وَأَصْبَحْنَا أَفْضَلَ صَدِيقَيْنِ.

– «لَقَدْ كَانَ مُقَدَّرًا لَنَا أَنْ نَعْدُو صَدِيقَيْنِ حَمِيمَيْنِ يَا رُوبِنْسُونُ! وَأَنَا لَسْتُ قَلِقًا، فَأَنَا
وَاثِقٌ أَنْ كُلَّ شَيْءٍ سَيَنْصَلِحُ.»

جَلَسْنَا صَامِتَيْنِ فِي حَيْمَتِنَا بَعْدَ ذَلِكَ لِفَتْرَةٍ، كُلُّ مَنَا يُفَكِّرُ كَيْفَ انْتَهَى بِهِ الْمَطَافُ
هُنَا، وَغَرِقَ كُلُّ مَنَا فِي أَفْكَارِهِ عَنْ حَيَاةِ الْمُعَامِرِ.
وَسَأَلْتُ جمعة: «هَلْ حَدَثَ أَنْ اِنْجَرَفَ أَيُّ مِنْ قَوْمِكَ فِي الْبَحْرِ بِقَوَارِبِهِمْ؟»
فَأَجَابَ: «لَا، لَا أَظُنُّ ذَلِكَ. فَنَحْنُ نُجَدِّفُ مَعَ الْمُدِّ، وَكُلُّ شَيْءٍ عَلَى مَا يِرَامُ، وَالنَّهْرُ
يَجْرِي فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ.»

فِي الْبِدَايَةِ، لَمْ أَفْهَمْ مَقْصِدَهُ. أَيُّ نَهْرٍ؟ نَعَمْ بِالطَّبْعِ! أَدْرَكْتُ أَنَّهُ لَا بَدَّ أَنَّهُ يَقْصِدُ نَهْرَ
أُورِينُوكُو الْعَظِيمِ، فَلَا بَدَّ أَنْ جَزِيرَتِي قَرِيبَةٌ مِنْ تَرِينِيدَادِ.

أَشْرْتُ إِلَى لِحِيَّتِي وَسَأَلْتُهُ: «هَلْ رَأَيْتَ رِجَالًا كَثِيرِينَ مِثْلِي مِنْ قَبْلُ؟»
فَكَرَّرْتُ جمعة فِي الْأَمْرِ لِذَقِيقَةٍ، ثُمَّ أَجَابَ: «فِي مَكَانٍ بَعِيدٍ كُلِّ الْبُعْدِ، يَبْعُدُ كَثِيرًا عَنْ
قَوْمِي، وَيَبْعُدُ كَثِيرًا عَنْ هُنَا، يَوْجَدُ رِجَالٌ بِلْحَى؛ رِجَالٌ بِلْحَى طَوِيلَةٍ وَوُجُوهُ شَاحِبَةٍ،
مِثْلَكَ بِالضَّبْطِ، أَجَلٌ.»

أَشْعَلْتُ كَلِمَاتِ جمعة حَمَاسَتِي وَقُلْتُ لَهُ: «هَلْ تَظُنُّ أَنْ بِمَقْدُورِنَا نَحْنُ أَنْ نُبْحَرَ مِنْ
هُنَا إِلَى هُنَاكَ بِقَارِبِي الصَّغِيرِ؟»

هَزَّ رَأْسَهُ نَفْيًا، وَانْخَفَضَتْ مَعْنُويَاتِي، وَقَالَ: «لَيْسَ فِي الْقَارِبِ الصَّغِيرِ، لَا، لَكِنْ
يُمْكِنُنَا الْإِبْحَارُ فِي قَارِبٍ أَكْبَرَ؛ قَارِبٍ كَبِيرٍ، فِي حَجْمِ زُورَقَيْنِ.»

الْحَيَاةُ مَعَ صَدِيقِي

انْفَعَرَ فَمِي عَنْ ابْتِسَامَةِ عَرِيضَةٍ، وَخَبِطْتُ جَمْعَةً عَلَى ظَهْرِهِ مِنْ فَرُطِ سَعَادَتِي، وَنَظَرَ إِلَيَّ كَمَا لَوْ كُنْتُ مَجْنُونًا، لَكِنِّي لَمْ أَبَال. فَلَاوَلِ مَرَّةٍ مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِينَ عَامًا، بَاتَتْ لَدَيَّ فِكْرَةٌ عَنْ مَكَانِ إِقَامَتِي، وَلَدَيَّ فِكْرَةٌ عَنْ مَكَانِ جَزِيرَتِي مِنَ الْعَالَمِ. لَمْ أَكُنْ وَحِيدًا، وَكَانَ لَدَيَّ أَمَلٌ فِي الْعُودَةِ لَوْطَنِي.

وَفِي سَاعَةٍ هَادِيَةٍ بَعْدَ الظَّهِيرَةِ، خِلَالَ مَوْسِمِ الْجَفَافِ، سِرْتُ أَنَا وَجَمْعَةٌ لِمَسَافَةِ طَوِيلَةٍ نَزُولًا إِلَى الشَّاطِئِ حَيْثُ رَأَيْتُ ذَاتَ مَرَّةٍ أَثَرَ قَدَمٍ. أَرَدْتُ أَنْ أَرِيَهُ أَجْزَاءَ السَّفِينَةِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي فَكَّكْتُهَا وَخَبَّأْتُهَا طَوَالَ تِلْكَ السَّنَوَاتِ الْمَاضِيَةِ.

تَفَحَّصَ جَمْعَةٌ حُطَامَ السَّفِينَةِ لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ، وَأَخَذَ يَقْلُبُ فِي الْأَجْزَاءِ لِيَرَى أَسْفَلَهَا، وَلَفَّ حَوْلَهَا لِأَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ. ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى ذَقْنِهِ وَقَالَ: «لَقَدْ رَأَيْتُ سَفِينَةً مِثْلَ هَذِهِ مِنْ قَبْلِ يَا رُوبِنْسُون.»

انْدَهَشْتُ جِدًّا لِسَمَاعِ هَذَا الْكَلَامِ، فَسَأَلْتُهُ: «مَاذَا تَعْنِي؟»

نَظَرَ إِلَيَّ جَمْعَةٌ مُجِيبًا: «مُنْذُ أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ. أَجَلٌ، كَانَ ذَلِكَ مُنْذُ أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ، هَبَطَ سَبْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا عَلَى جَزِيرَتِي.» وَاسْتَمَرَ جَمْعَةٌ فِي حَدِيثِهِ لِخُبْرَتِي أَنَّ هَؤُلَاءِ الرِّجَالَ لَا يَزَالُونَ هُنَاكَ، يَعْيشُونَ عَلَى جَزِيرَتِهِ، بِالْقُرْبِ مِنْ قَوْمِهِ.

قُلْتُ لَهُ: «لَا بَدَّ أَنَّهُمُ الرِّجَالُ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى مَتْنِ السَّفِينَةِ الَّتِي شَهِدْتُهَا بَعْدَ تَحَطُّمِهَا!» ثُمَّ أَخْبَرْتَهُ كُلَّ شَيْءٍ عَنِ سَمَاعِي لِطَلَقَاتِ الْمُدْفَعِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، ثُمَّ طَلَقَاتِ النَّارِ، وَاسْتَطْرَدْتُ: «لَكِنْ عِنْدَ انْقِشَاعِ الضُّبَابِ وَنُزُولِي إِلَى الشَّاطِئِ، كُلُّ مَا وَجَدْتُهُ هُوَ سَفِينَةٌ أُخْرَى مُحَطَّمَةٌ! كَمْ مِنَ الرَّائِعِ أَنْ كُلَّ هَؤُلَاءِ الرِّجَالَ لَمْ يَمُوتُوا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ كَمَا ظَنَنْتُ!»

وَبَدَأْنَا فِي السَّيْرِ عَائِدِينَ إِلَى الْمُحَيِّمِ، كِلَانَا مُسْتَعْرِقٌ فِي أَفْكَارِهِ. وَكَانَتْ مَشِيَّةً هَادِيَةً، لَمْ أَقُلْ أَيَّ شَيْءٍ لِصَدِيقِي إِلَى مَا بَعْدَ الْعِشَاءِ.

وَقُلْتُ لَجَمْعَةٍ قَاطِعًا أَمْرِي: «عَلَيْنَا الْعُودَةُ إِلَى جَزِيرَتِكَ يَا جَمْعَةٌ!»

هَلْ يُمَكِّنُنَا مُغَادِرَةُ الْجَزِيرَةِ؟

كُنَّا فِي حَاجَةٍ إِلَى قَارِبٍ لِنُغَادِرَ الْجَزِيرَةَ؛ فَالْقَارِبَانِ اللَّذَانِ صَنَعْتُهُمَا لَنْ يَكُونَا ذَوِي نَفْعٍ لِمِثْلِ هَذِهِ الرَّحْلَةِ الطَّوِيلَةِ (وَبِالنَّسْبَةِ لِقَارِبِي الْأَوَّلِ فَلَا يَزَالُ مَتْرُوكًا عَلَى الْيَابِسَةِ فِي مُنْتَصَفِ الْعَابَةِ).

سَأَلْتُ جَمْعَةَ ذَاتِ صَبَاحٍ بَيْنَمَا نَتَنَاوَلُ إِفْطَارَنَا: «هَلْ تَطُنُّ أَنْ بِإِمْكَانِكَ مُسَاعَدَتِي فِي صُنْعِ سَفِينَةٍ مِثْلِ الَّتِي رَأَيْتَهَا مِنْذُ أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ؟»

وَأَجَابَتْ: «أَجَلٌ، فَلَا أَرَى مَا نَعْمًا. وَمَعَ أَنِّي غَيْرُ مُتَأَكِّدٍ كَيْفَ، لَكِنِّي مُتَأَكِّدٌ أَنَّكَ قَادِرٌ عَلَى تَعْلِيمِي؛ أَلَيْسَ كَذَلِكَ يَا رُوبِنْسُون؟»

فَقُلْتُ: «بِالطَّبَعِ! فَبِتَعَاوُنِنَا مَعًا سَوْفَ نَسْتَطِيعُ بِنَاءَ قَارِبٍ جَدِيدٍ يَحْمِلُنَا لِنَعُودَ بِهِ إِلَى جَزِيرَتِكَ.»

قَطَعْنَا الْأَشْجَارَ، وَنَحَتْنَا الْأَوْحَ الْخَشَبَ، وَفَرَّغْنَا الْقَاعَ. عَمِلْنَا وَتَعَبْنَا. وَمَرَّتِ الشُّهُورُ وَبَدَأَ مَرْكَبُنَا يَأْخُذُ شَكْلًا بَبُطَاءٍ. وَعَمِلْنَا طَوَالَ مَوْسِمِ الْجَفَافِ كُلِّهِ بِلَا تَوَقُّفٍ وَلَوْ لِيَوْمٍ وَاحِدٍ. وَبِمَجْرَدِ انْتِهَاءِ الْعَمَلِ فِي الْقَارِبِ، بَدَلْنَا كُلَّ جُهْدِنَا لِزِحْزِحَتِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى الْمَاءِ. وَحَقًّا لَمْ نَرَ قَطْرًا رَجُلَيْنِ أَسْعَدَ مِنَّا يَوْمَ أَنْ طَفَا الْقَارِبُ عَلَى صَفْحَةِ الْمَاءِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ!

كَانَ جَمْعَةُ وَاثِقًا أَنْ بِاسْتِطَاعَتِنَا اسْتِحْدَامَ مَجَادِيفِنَا حَتَّى نَصِلَ إِلَى الْبَرِّ الرَّئِيسِيِّ، وَمَعَ ذَلِكَ فَكَانَ لَدَيَّ فِكْرَةٌ أَفْضَلُ؛ فَبَيْنَمَا قَطَعَ جَمْعَةُ شَجَرَةً أَرْزُ كَبِيرَةً كَيْ نَسْتَخْدِمَهَا كِصَارٍ، جَلَسْتُ وَخَطْتُ جَمِيعَ أَجْزَاءِ الْخَيْمَةِ الَّتِي احْتَفِظْتُ بِهَا عَلَى مَدَى هَذِهِ السَّنَوَاتِ. وَوَضَعْنَا الصَّارِي وَأَقَمْنَا الشَّرَاعَ، وَأَصْبَحَ الْمَرْكَبُ الْأَنْ جَاهِرًا لِحَوْلَةِ اللَّتَجْرِبَةِ! أَبْحَرْتُ أَنَا

وجمعة حَوْلَ الْمَرْفَأِ إِذْ عَلَّمْتُهُ كَيْفَ يُبْحِرُ. وَكَحَالِهِ مَعَ كُلِّ شَيْءٍ آخَرَ أَرَيْتُهُ كَيْفَ يَقُومُ بِهِ، وَجَدْتُهُ سَرِيعَ التَّعَلُّمِ، حَتَّى عَرَفَ جَمْعَةَ سَرِيعًا كَيْفَ يَتَحَكَّمُ فِي الْمَرْكَبِ تَقْرِيبًا بِنَفْسِ جَوْدَةٍ تَحَكُّمِي فِيهِ.

بَعْدَ ذَلِكَ اضْطَرَرْنَا إِلَى أَنْ نَنْظَلَ فِي مَنْزِلِنَا فِي الْمَوْسِمِ الْمَطِيرِ، وَأَرَدْنَا حِمَايَةَ الْمَرْكَبِ مِنْ ظُرُوفِ الطَّقْسِ. فَحَفَرْنَا حَوْضًا صَغِيرًا لِلْمَرْكَبِ مِنَ الْيَابِسَةِ بِالْقُرْبِ مِنَ الْجَدُولِ، ثُمَّ حَرَصْنَا عَلَى بَقَائِهِ جَافًا عَنِ بِنَاءِ سَدِّ حَوْلَهُ وَتَغْطِيَةِ قِمَّتِهِ بِأَغْصَانٍ كَبِيرَةٍ كَامِلَةٍ لِتَكُونَ بِمَنْزِلَةِ سَقْفٍ. وَالْآنَ كُلُّ مَا تَبَقِيَ لَنَا فَعَلُهُ هُوَ انْتِظَارُ تَحَسُّنِ الطَّقْسِ.

مَرَّ إِجْمَالِي سَبْعَ وَعِشْرِينَ عَامًا مُنْذُ أَنْ تَحَطَّمْتُ قَارِبِي وَأَلْقَيْتُ عَلَى الْجَزِيرَةِ، فَكَمْ هُوَ صَعْبٌ أَنْ أَصْدَقَ مُرُورَ كُلِّ هَذَا الْوَقْتِ. جَلَسْتُ لِفَتْرَاتٍ طَوَالٍ مُتَسَائِلًا كَمْ تَغَيَّرَتِ الْحَيَاةُ يَا تَرَى فِي وَطَنِي، هَلْ لَا تَزَالُ مَزْرَعَتِي مَوْجُودَةً؟ هَلْ لَا يَزَالُ أَهْلِي عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ؟ هَلْ عَادَ أَخِي لِلْوَطَنِ؟ تَسَابَقْتُ هَذِهِ الْأَفْكَارَ بَيْنَ جَنْبَاتِ عَقْلِي مِثْلَ قَطْرَاتِ الْمَطَرِ، لَا يُوقِفُهَا شَيْءٌ سِوَى سَطُوعِ الشَّمْسِ.

الفصل الثامن والعشرون

التَّمَرُّدُ وَالْحُرِّيَّةُ

تَوَقَّفَتِ الْأَمْطَارُ، مِثْلَمَا كَانَ الْحَالُ عَلَى مَدَى مَوَاسِمَ عَدِيدَةٍ. وَبَدَأْتُ أَنَا وَجَمْعَةٌ فِي الْإِعْدَادِ بِجِدِيَّةٍ لِرِحْلَتِنَا. اعْتَنَيْنَا بِالْمَحْصُولِ عِنَايَةً جَيِّدَةً، وَبَدَأْنَا فِي تَرْتِيبِ جَمِيعِ الْمُؤْنِ، وَلَمْ يَتَبَقَّ سِوَى التَّأَكُّدِ مِنْ تَوَافُرِ الْغِذَاءِ الْكَافِي بِحَوْرَتِنَا. وَسَأَلْتُ جَمْعَةً: «هَلْ تَمَانَعُ فِي الذَّهَابِ إِلَى الْمَنْزِلِ الصَّيْفِيِّ وَتَجْمِيعِ بَعْضِ الزَّبِيبِ لَنَا؟»

فَأَجَابَ: «عَلَى الْإِطْلَاقِ، سَأَذْهَبُ مِنْ فَوْرِي.»
وَلَمْ تَكَدْ تَمْضِي سَاعَةٌ وَاحِدَةٌ حَتَّى سَمِعْنُهُ يَجْرِي عَلَى الطَّرِيقِ صَاعِدًا وَهُوَ يَصْرُخُ:
«روبِنسون! روبِنسون! أَقْبِلْ بِسُرْعَةٍ. يُوجَدُ مَرْكَبٌ هُنَا! مَرْكَبٌ!»
الْتَقَطْتُ بُنْدَقِيَّتَيْنِ وَأَنَا فِي طَرِيقِي خَارِجًا مِنَ الْبَابِ، وَالْقَيْتُ بِوَاحِدَةٍ لْجَمْعَةِ، وَأَسْرَعْنَا إِلَى التَّلِّ الْعَالِيِ، وَاخْتَبَأْنَا بِهُدُوءٍ وَرَاقِبْنَا سَفِينَةً إِنْجِلِيزِيَّةً وَهِيَ تُبْحِرُ نَحْوَ الْجَزِيرَةِ. وَهَمَسَ لِي جَمْعَةٌ: «مَاذَا تَتَّظَنُّهُمْ فَاعِلِينَ؟»

فَأَجَبْتُ: «لَسْتُ أَدْرِي، لَكِنَّهُ بِالتَّأَكُّيدِ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ، فَهَذَا لَيْسَ طَرِيقَ تِجَارَةٍ مُعْتَادٍ؛ وَلَمْ أَرَّ سَفِينَةً إِنْجِلِيزِيَّةً لِمَا يُقَارَبُ ثَلَاثِينَ سَنَةً.»
أَلْقَتِ السَّفِينَةُ بِمِرْسَاتِهَا عَلَى الشَّاطِئِ مُبَاشَرَةً، وَجَرَّ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الرِّجَالِ الْغَاضِبِينَ حَادِي الطَّبَاعِ ثَلَاثَةَ أَسْرَى مِنَ السَّفِينَةِ إِلَى الشَّاطِئِ. وَكَانَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَقْدَامُهُمْ مُقْبَدَةً، ثُمَّ تَرَكَ الْأَشْرَارُ هَوْلَاءَ الرِّفَاقِ الْمَسَاكِينِ فِي حَرَارَةِ الشَّمْسِ بِلَا غِذَاءٍ وَلَا مَاءٍ فِي حِينِ ذَهَبُوا هُمْ لِيَسْتَكْشِفُوا الْجَزِيرَةَ.

أَشْرْتُ لجمعة بِأَنْ يَتَّبِعَنِي، وَتَسَلَّلْنَا بِبُطْءٍ هُبُوطًا عَلَى الطَّرِيقِ إِلَى الشَّاطِئِ. وَحِينَ تَيَقَّنْتُ أَنَّ لَا أَحَدَ بِجَوَارِنَا، تَسَلَّلْتُ إِلَى الرَّجَالِ وَسَأَلْتُهُمْ مَنْ هُمْ وَلِمَاذَا أَتَوْا إِلَى الْجَزِيرَةِ. فِي الْبِدَايَةِ ارْتَبَكُوا أَيَّمَا ارْتَبَاكِ، وَلَمْ يُجِيبُونِي عَلَى الْإِطْلَاقِ. فَلَا بَدَّ أَنَّ مَنظَرِي بَدَأَ شَدِيدَ الْغَرَابَةِ لَهُمْ؛ كَأَنسَانٍ هَمَجِيٍّ وَمَجْنُونٍ يَظْهَرُ مِنَ الْعَدَمِ!

قُلْتُ لَهُمْ: «لَنْ أُوذِيَكُمْ، أَنَا هُنَا لِمُسَاعَدَتِكُمْ.» وَنَادَيْتُ عَلَى جَمْعَةٍ لِيَأْتِي، وَبِاسْتِخْدَامِ سَكِّينِهِ قَطَعَ قُيُودَهُمْ. وَبَيْنَمَا كُنَّا نُحَرِّرُهُمْ، شَرَحَ لَنَا أَحَدُ الرَّجَالِ: «أَنَا قُبْطَانُ هَذِهِ السَّفِينَةِ الْعَظِيمَةِ، وَقَدْ حَدَثَ عَلَيَّ مَتْنَهَا تَمَرُّدٌ، فَفَرَرْتُ طَاقِمُ السَّفِينَةِ الْإِبْحَارَ خَارِجَ الْمَسَارِ الْمُحَدَّدِ. وَهَكَذَا رَسَوْنَا هُنَا.»

قُلْتُ لَهُمْ: «تَعَالَوْا بِسُرْعَةٍ، عَلَيْنَا أَنْ نُبْعِدَ ثَلَاثَتَكُمْ عَنَّا قَبْلَ أَنْ يَعودُوا.»
- «بِالْمُنَاسِبَةِ، أَنَا الْقُبْطَانُ وَالشَّ، أَمَّا هَذَانِ الرَّجُلَانِ فَهُمَا نَائِبَايَ، مُورَجَانُ وَبَاسُ.»
- «أَنَا رُوبِنْسُونُ كُروزو، وَهَذَا جَمْعَةٌ.»

الفصل التاسع والعشرون

الْأَخْذُ بِالذَّفَّةِ

دُونَ مُقَدَّمَاتٍ، جَرَيْنَا بِسُرْعَةٍ بِكُلِّ طَاقَتِنَا بَعِيدًا عَنِ الشَّاطِئِ، وَجَمَعَةَ فِي الْمُقَدِّمَةِ. وَمَا إِنْ جَلَسْنَا بِأَمَانٍ عَلَى التَّلِّ الْعَالِي، حَتَّى أَخْبَرَنَا الْقُبْطَانُ بِقِصَّتِهِ بِتَفَاصِيلٍ أَكْثَرَ. وَفِي النِّهَائِيَّةِ، تَبَيَّنَ أَنَّ رَجُلَيْنِ فَقَطُ هُمَا مَنْ تَسَبَّبَا فِي حُدُوثِ جَمِيعِ الْمَشَاكِلِ لِلْقُبْطَانِ الْمَسْكِينِ. فَهَمَّا مَنْ أَقْنَعَا الْأَخْرِيْنَ بِالْتَّمَرُدِّ وَالْآنَ يُضَلِّلَانِهِمْ بِالْكُلِّيَّةِ. وَاسْتَطْرَدَّ الْقُبْطَانُ بِقَوْلِهِ إِنَّ الْحِظَّ الْحَسَنَ هُوَ مَا أَبْقَاهُمْ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ؛ لِأَنَّهُمَا بَحَارَانِ عَيْرٌ مَاهِرَيْنِ؛ فَهَمَّا فِي الْحَقِيقَةِ لَا يَدْرِيَانِ شَيْئًا عَمَّا يَفْعَلَانِهِ.

– «فَكُلُّ مَا يَشْغَلُ تَفْكِيرُهُمَا هُوَ الذَّهَبُ؛ وَلَيْسَ سَلَامَةَ الْمَرْكَبِ، أَوْ حَيَاةَ بَاقِي الرَّجَالِ. وَكُلُّ مَا يُرِيدَانِهِ هُوَ الْمَالُ.»

سَأَلْتُ الْقُبْطَانَ وَالشَّ عَمَّا إِذَا كَانَ يَظُنُّ أَنَّ يَعُودُ بَاقِي رِجَالِهِ إِلَى إِخْلَاصِهِمْ لَهُ، إِذَا تَمَّ الْإِمْسَاكُ بِاللُّصِّينِ.

– «أَجَلٌ، أَظُنُّهُمْ سَيَفْعَلُونَ، فَلَا أَعْتَقِدُ أَنَّهُمْ فَرِحُونَ بِوُجُودِهِمْ فِي الْبَحْرِ بِلَا اتِّجَاهٍ وَاضِحٍ وَلَا خُطَطٍ لِلْعُودَةِ لِأَوْطَانِهِمْ.»

فَأَخْبَرْتُ الْقُبْطَانَ وَالشَّ أَنَّي يُسْعِدُنِي أَنَا وَجَمَعَةُ أَنَّ نُنَاصِرَهُ، لَكِنِّي كُنْتُ أَوْدُ مَعْرِفَةَ شَيْئَيْنِ فِي الْبِدَايَةِ.

– «هَلْ سَتَتَّبِعُ تَعْلِيمَاتِي وَتَدْعُنِي أَفُودَكَ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ؟ وَفِي حَالِ انْتِصَرْنَا، هَلْ تَصْحَبُنِي أَنَا وَجَمَعَةُ لِنَعُودَ إِلَى إِنْجِلْتْرَا بِرِفْقَتِكَ؟»

وَافَقَ الْقُبْطَانُ وَالشَّ فِي الْحَالِ، وَجَلَسْنَا نَحْنُ الْحَمْسَةُ لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ وَابْتَكْرْنَا خُطَّةً مُحْكَمَةً لِلْغَايَةِ. فَغَالِبًا مَا يَقْضِي الْوُغْدَانِ الْوَقْتَ جَالِسِينَ فَحَسْبُ لِنَدْبِيرِ خُطَّتِهِمْ. وَاتَّفَقَ

الْقُبْطَانُ أَنَّ فِي اسْتِطَاعَتِنَا عَلَى الْأَرْجَحِ أَسْرَهُمَا بِسُهُولَةٍ، ثُمَّ بَعْدَ الْإِطْمِئْنَانِ إِلَى تَقْيِيدِهِمَا، نُنْقِعُ بَاقِيَ الرَّجَالِ بِالْعُودَةِ لِلنِّظَامِ.

اضْطَحَبْنَا الْبَحَارَةَ لِكَهْفِي الْخَاصِّ بِالطَّهِي، حَيْثُ أَحْتَفِظُ بِبَاقِي بِنَادِقِي. وَأَعْطَيْتُ كُلَّ رَجُلٍ سِلَاحًا وَبَعْضَ الْبَارُودِ، تَحْسَبًا لِاحْتِيَاجِنَا إِلَيْهِ. وَتَحَرَّكْنَا نَحْنُ الْخَمْسَةُ بِخَفِيَّةٍ كَالْهَوَاءِ لِنَعُودَ إِلَى الشَّاطِئِ، حَيْثُ يَغْفُو كُلُّ الرَّجَالِ، مُنْتَشِرِينَ بِطُولِ الشَّاطِئِ، وَقَدْ أَسْنَدَ بَعْضُهُمْ رَأْسَهُ عَلَى أَرْزَادِ الْأَشْجَارِ، وَرَقَدَ الْبَعْضُ فِي الشَّمْسِ وَحَسَبُ.

أَحْطْنَا بِالرَّجَالِ، وَعَدَدْتُ إِلَى ثَلَاثَةِ بِأَصَابِعِي، ثُمَّ أَطْلَقْنَا النَّارَ مِنْ بِنَادِقِنَا فِي الْهَوَاءِ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ، فَفَقَزَ الرَّجَالُ، حَائِفِينَ وَمَمْدُومِينَ، وَلَمْ يَدْرُوا مَاذَا يَفْعَلُونَ!
وَصَحَّتْ قَائِلًا: «أَلْقُوا أَسْلِحَتَكُمْ! أَلْقُوهَا الْآنَ قَبْلَ أَنْ نَطْلُقَ النَّارَ عَلَيْكُمْ جَمِيعًا!»
وَعَلَا صَوْتُ رَبِّينَ وَصَحَبِ الْعِدِيدِ مِنَ السَّاكِينِ، وَالسُّيُوفِ، وَالْأَعْمَادِ عِنْدَ ارْتِطَامِهَا بِالْأَرْضِ.

ثم أضفت: «والبنادق أيضًا، أعرف أن معكم بنادق!» فألقى قليل منهم أسلحتهم على مضض.

واستدرت للقبطان والش قائلاً: «من الوعدان اللذان استوليا على سفينتك يا قبطان والش؟» فأشار القبطان بإصبعه إلى رجلين مرتعدين في وسط المجموعة.

– «أنتما، تعاليا هنا، الآن!» ترددا في البداية، ثم حاولا الفرار، لكن جمعة كان سريعاً بما يكفي لإيقافهما. فأوقع الأول ثم أمسك بالآخر قبل حتى أن يصل إلى الأشجار. وقلت: «بسرعة! هيا لنقيدهما!» قيد مورجان وبأس أيديهما معاً باستخدام بعض الحبال المصنوعة من نبات الكزامة.

– «جمعة، أنت تعلم أين سذهب بهذين الهمجيين!» فأومأ برأسه وأشار إلى باس ومورجان ليساعداً.

وبمجرد ابتعادهما عن مرمى السمع، تحدث القبطان مع رجاله، فقال لهم إما أن يعودوا إليه أو يفقدوا حياتهم اللينة؛ وكان الخيار لهم. فطأطأوا جميعاً رءوسهم في خزي من خيانتهم مثل هذا الرجل الصالح. وأخبر كل واحد منهم القبطان والش أنهم سيئبوعونه. واعتذر الكثيرون على التمرد، وقالوا إنهم كانوا منزعجين بشدة من جراء ما

فَعَلُوهُ، بَلْ إِنَّ أَحَدَهُمْ بَدَأَ يَنْشُدُ أُغْنِيَةَ «لَأَنَّهُ رَفِيقٌ صَالِحٌ وَمَرِحٌ» مِمَّا أَسْعَدَ الْقُبْطَانَ وَالنَّشَ
أَيَّمَا سَعَادَةٍ.

بِتَقْيِيدِ الْوَعْدَيْنِ بِإِحْكَامٍ فِي كَهْفِي الْخَاصِّ بِالطَّهْيِ، تَسَنَّتْ لِي وَلِلْقُبْطَانَ فُرْصَةٌ إِجْرَاءِ
حَدِيثٍ طَوِيلٍ وَشَاقِّ، فَسَرْتُ بِالْقُبْطَانَ وَالنَّشَ فِي جَوْلَةٍ عَلَى جَزِيرَتِي، وَأَرَيْتُهُ مَزْرَعَتَنَا
النَّاجِحَةَ، وَانْبَهَرَ أَيَّمَا انْبِهَارٍ، فَلَمْ يَسْعُهُ التَّصَدِيقُ أَنَّي عَمِلْتُ الْكَثِيرَ بِمُفْرَدِي!
وَبَعْدَ قَضَاءِ زَمَنِ عَلَى الْجَزِيرَةِ، قَضَيْتُ أَنَا وَجَمْعَةٌ بَضْعَ سَاعَاتٍ لِحَزْمِ كُلِّ شَيْءٍ
نَحْتَاجُهُ فِي الرَّحْلَةِ الْبَحْرِيَّةِ إِلَى إِنْجَلِتْرَا. وَقَالَ الْقُبْطَانُ إِنَّ لَدَيْهِ الْكَثِيرَ مِنَ الْمُؤْنِ عَلَى ظَهْرِ
السَّفِينَةِ بِالْفِعْلِ، لَكِنَّهُ أَخَذَ بَعْضَ مِيَاهِ الشَّرْبِ وَالْكَثِيرَ مِنَ الْفَاكِهِةِ مِنْ مَنْزِلِي الصَّيْفِيِّ
مِنْ أَجْلِ رَحْلَةِ الْعُودَةِ، ثُمَّ أَعْطَانِي الْقُبْطَانُ الطَّيِّبَ قَمِيصًا نَظِيفًا وَبِنَطْلًا جَدِيدًا! وَكَانَا
رَائِعَيْنِ؛ فَقَدْ ظَلَلْتُ سَنَوَاتٍ لَا أَرْتَدِي سِوَى مَلَابِسٍ مِنْ جِلْدِ الْمَاعِزِ!
وَسَأَلْتُ جَمْعَةً وَنَحْنُ نَحْزِمُ أُمَّتِعَتَنَا: «هَلْ أَنْتَ وَاثِقٌ أَنْكَ لَا تَوُدُّ الْعُودَةَ لَوْطَنِكَ، إِلَى
عَائِلَتِكَ؟»

فَأَجَابَنِي: «رُوبِنْسُون، أَنَا قَرَّرْتُ مِنْذُ زَمَنِ بَعِيدٍ جِدًّا أَنِّي أُرِيدُ حَيَاةَ الْمُغَامَرَةِ، وَالْآنَ
لَدَيَّ الْفُرْصَةُ لِأَرَى دَوْلَةَ إِنْجَلِتْرَا الْعُظْمَى، وَلَنْ أَفُوتَ هَذِهِ الْفُرْصَةَ!»
قُلْتُ لَهُ: «أَهْ يَا جَمْعَةٌ! إِنَّنِي سَعِيدٌ جِدًّا لِسَمَاعِي بِأَنَّكَ سَتَأْتِي مَعِي، فَلَنْ يَكُونَ الْحَالُ
بِكَ كَمَا هُوَ بِدُونِكَ.»

أَتَى الْقُبْطَانُ وَالنَّشَ لِيُخْبِرَنَا أَنَّ سَفِينَتَهُ مُسْتَعِدَّةٌ لِلرَّحِيلِ، وَلَكِنْ لَمْ يَبْقَ سِوَى شَيْءٍ
وَاحِدٍ فَقَطْ كَانَ عَلَيَّ عَمَلُهُ قَبْلَ رَحِيلِنَا؛ وَهُوَ ذَهَابِي لِلرَّجُلَيْنِ الْمُفْعِدَيْنِ فِي كَهْفِي الْخَاصِّ
بِالطَّهْيِ.

قُلْتُ لَهُمَا: «لَدَيْكُمَا خِيَارَانِ: الْعُودَةُ إِلَى إِنْجَلِتْرَا مَعَنَا، مُقَيَّدَيْنِ وَمُصَفَّدَيْنِ، عَلَى أَنْ
تُحَاكَمَا وَتُطَبَّقَ عَلَيْكُمَا عُقُوبَةُ الشَّنَقِ بِتُّهْمَةِ الْخِيَانَةِ، أَوْ الْبَقَاءُ هُنَا عَلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ،
وَبَدَلُ قَصَارَى جُهْدِكُمَا لِلْبَقَاءِ عَلَى قَبْدِ الْحَيَاةِ.»

نَظَرَ الرَّجُلَانِ بَعْضُهُمَا إِلَى بَعْضٍ، فَقَدْ كَانَا يَعْلَمَانِ أَنَّ عَوْدَتَهُمَا إِلَى الْبِلَادِ تَعْنِي
الإِعْدَامَ؛ لِذَا لَمْ أَتَفَاجَأُ حِينَ طَاطَأَ كِلَا الرَّجُلَيْنِ بِرَأْسَيْهِمَا وَنَقَبَلَا مَصِيرَهُمَا. فَكَكَّتْ أَيْدِيَهُمَا
وَأَقْدَامَهُمَا وَتَرَكَّتْ لَهُمَا بَعْضَ مِيَاهِ الشَّرْبِ، وَأَخْبَرْتُهُمَا أَنِّي جِدَانٍ مُخَيَّمِي، وَكَيْفَ يَحْيَا

حَيَاةً طَيِّبَةً عَلَى الْجَزِيرَةِ إِذَا عَمَلًا بَجِدًّا وَاجْتِهَادًا. بَدَا تَعْيِسِينَ عِنْدَ رَحِيلِي، لَكِنَّهُمَا عَلَى
الْأَقْلُ ظَلًّا عَلَى قَبْدِ الْحَيَاةِ.

قُلْتُ لَهُمَا: «هَذِهِ الْجَزِيرَةُ جَنَّةٌ الْآنَ، وَعَلَيْكُمَا مُعَامَلَتَهَا عَلَى هَذَا الْأَسَاسِ.»
مَعَ كَلِمَاتِ الْوَدَاعِ هَذِهِ تَرَكَتُهُمَا. وَنَظَرْتُ مَرَّةً أُخِيرَةً فِي الْأَرْجَاءِ، فَالْيَوْمَ الَّذِي ظَنَنْتُهُ
لَنْ يَأْتِيَ أَبَدًا أَتَى أُخِيرًا؛ فَسَأُغَادِرُ الْجَزِيرَةَ. وَأَضْحَى سَجْنِي مَوْطِنًا جَمِيلًا، لَكِنْ عَلَى قَدْرِ
الرَّاحَةِ الَّتِي عَمَّتِ الْأَرْجَاءِ، إِلَّا أَنَّي اشْتَقْتُ إِلَى الْحَضَارَةِ، وَأَرَدْتُ الْعُودَةَ لَوْطَنِي.

الفصل الثلاثون

الْعُودَةُ إِلَى الْوَطَنِ

التَّقِيْتُ بِجُمُعَةِ أَمَامِ الْمَنْزِلِ الصَّيْفِيِّ وَنَزَلْنَا إِلَى الشَّاطِئِ مَعًا. وَكُنْتُ قَدْ حَزَمْتُ بِالْفِعْلِ الْأَشْيَاءَ الْقَلِيلَةَ الَّتِي أَرَدْتُ أَخَذَهَا مَعِي: فُبِعْتِي مِنْ جِلْدِ الْمَاعِزِ وَمِظَلَّتِي وَآخِرَ بَبَعَاوَاتِي الْأَلْيَفَةِ، وَبِالتَّأَكِيدِ كُلَّ الْأَمْوَالِ الَّتِي عَدَرْتُ عَلَيْهَا وَاحْتَفَظْتُ بِهَا مُنْذُ كُلِّ هَذِهِ السَّنَوَاتِ سَنَكُونُ الْآنَ ذَاتَ نَفْعٍ كَبِيرٍ!

غَادَرْنَا الْجَزِيرَةَ فِي التَّاسِعِ عَشَرَ مِنْ دَيْسَمِيرَ ١٦٨٦؛ بَعْدَ ثَمَانِيَةِ وَعِشْرِينَ عَامًا وَشَهْرَيْنِ وَتِسْعَةِ عَشَرَ يَوْمًا مِنْ نَزْوِي عَلَيْهَا. وَبِحُلُولِ يُونِيُو مِنْ الْعَامِ التَّالِي، وَصَلْنَا إِلَى إِنْجَلِتْرَا. وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَسِيرُ فِي شَوَارِعِ يُورْكَ، لَمْ أَصْدُقْ مِقْدَارَ التَّغْيِيرِ الَّذِي حَدَثَ عَلَى مَدَارِ الْخُمْسِ وَالثَّلَاثِينَ سَنَةَ الْمَاضِيَةِ؛ فَالْمَدِينَةُ صَارَتْ أَكْبَرَ، وَالشُّوَارِعُ أَكْثَرَ ازْدِحَامًا، أَمَا أَبَوَايَ فَقَدْ تُوُفِّيَا مُنْذُ سَنَوَاتٍ. وَمَا تَوَقَّعْتُ حَقًّا، فِي أَعْمَاقِي، أَنْ يَكُونَا عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ، لَكِنِّي حَزَنْتُ عَلَى خَسَارَتِهِمَا بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ.

بَعْدَ قِضَاءِ بَعْضِ الْوَقْتِ فِي يُورْكَ، قَرَّرْتُ السَّفَرَ إِلَى الْبِرَازِيلِ. فَقَدْ انْتَابَنِي الْفُضُولُ لِأَرَى مَاذَا حَلَّ بِمَرْعَتِي؛ لِأَرَى هَلْ لَا يَزَالُ شُرَكَائِي عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ، وَهَلْ مَرْعَتِي لَا تَزَالُ قَائِمَةً.

بَدَأْنَا رِحْلَتَنَا أَنَا وَجُمُعَةُ فِي الْبَحْرِ مُتَّجِهِينَ إِلَى الْبِرَازِيلِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي أْبْرِيلِ سَنَةِ ١٦٨٨. وَقَدْ اخْتَلَفَ الْبَلَدُ أَيَّمَا اخْتِلَافٍ! وَتَوُفِّيَ الْكَثِيرُ مِنْ أَصْدِقَائِي وَشُرَكَاءِ الْعَمَلِ الْقَدَامَى. وَلِحُسْنِ الْحِظِّ أَنْ وَيْلَازِ، صَدِيقِي الْقَدِيمِ وَجَارِي، كَانَ لَا يَزَالُ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ، وَكَانَ قَدْ ازْدَادَ ثَرَاءً مِنْ نَجَاحِ مَرْعَتَيْنَا، وَحِينَ وَصَلْتُ أَنَا وَجُمُعَةُ إِلَى عَنَبَةِ بَابِهِ، فُوجِئْتُ جِدًّا

لِرؤيَّتِي؛ حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَتَعَرَّفْ عَلَيَّ فِي الْبِدَايَةِ! وَاسْتَعَدْتُ مَرْزَعَتِي، وَجَنَيْتُ رَبْحًا وَفِيرًا حِينَ بَعْتُهَا بَعْدَ بَضْعَةِ أَشْهُرٍ.

بَدَأْنَا سَرِيعًا فِي تَنْفِيزِ حُطِّ الْعُودَةِ إِلَى إِنْجَلِيتْرَا، فَقَدْ تَقَّتْ إِلَى الْحَيَاةِ الْهَادِيَّةِ الْمُطْمَئِنَّةِ، الَّتِي أَرَادَهَا لِي أَبِي مِنْ قَبْلِ مُنْذُ كُلِّ هَذِهِ السَّنَوَاتِ؛ قَبْلَ زَمَنِ مِنْ شُرُوعِي فِي أَيِّ مُغَامَرَةٍ، وَقَبْلَ زَمَنِ مِنْ قَضَاءِ مَا يَقَارِبُ عُمْرِي كُلَّهُ حَبِيسًا عَلَى جَزِيرَةِ مَهْجُورَةٍ. وَلَعَلِّي أَسْتَطِيعُ الْآنَ — فِي شَيْخُوحَتِي — الْإِسْتِمْتَاعَ بِالْحَيَاةِ الَّتِي أَرَادَهَا أَبِي لِي. لَكِنْ عَلَيْنَا، أَنَا وَجَمْعَةٌ، الْعُودَةَ إِلَى الْوَطَنِ أَوْلًا. وَهَذِهِ الْمُغَامَرَاتُ، يَا أَصْدِقَائِي الْأَوْفِيَاءَ، هِيَ أَحْدَاثُ قِصَّةِ أُخْرَى لِاحِقَةٍ.